منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

إسماعيل يبرير

باردة كأنثى

رواية

بـــاردة كـــأنثـــــى

بـــاردة كـــأنثـــــى

رواية

إسماعيل يبرير



الطبعة الأولى

1434 هـ - 2013 م

ISBN 978-614-02-0955-8

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

149 شارع حسيبة بن بوعلي

الجزائر العاصمة - الجزائر

هاتف/فاكس: 21676179 213+

e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com



e-mail: info@kul-shee.com

www.kul-shee.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

هاتف الرياض: 966509337722+

هاتف بيروت: 9613223227+

editions.difaf@gmail.com

أن نكون ودودين مع مَنْ يكرهوننا، وقساةً

مع مَنْ يحبّونَنا – تلك هي دُونيّة المُتعالي،

وغطرسة الوضيع!

أيّها الماضي! لا تغيِّرنا... كلما ابتعدنا عنك!

أيّها المستقبل: لا تسألنا: مَنْ أنتم؟

وماذا تريدون مني؟ فنحن أيضاً لا نعرف

أَيّها الحاضر! تحمَّلنا قليلاً، فلسنا سوى

عابري سبيلٍ ثقلاءِ الظل!

محمود درويش

أنت منذ الآن غيرك!"

-1-

لست أدري لماذا؟

طالما تصوّرتُ أنّ الموت يترصّدُ الوحيدين، فكلّما كنت وحدي حدّق ب.ي، لأجل هذا تجنّبتُ طوال طفولتي البقاء وحيدا ليس رغبةً في الآخرين ورفقتهم، اطلاقا فأنا لم أعثر على أنس في أحد، لا أحد على الاطلاق.

خُيّل لي أنّ الموت سيتردّد ويؤجّلني إذا صادف أن كنت مع شخص ما، أيّ شخص. بدأ هذا الشعور يضعف تدريجيا عندما رأيت كيف يموت الناس جماعات وفرادى ولا يبالي الموت بالرّفقة ولا الخلوة. رغم أن سلطان الموت امتدّ من حولي لكنني كنت ممتنا، على الأقل منعني ذلك من مواصلة الفردانية التي سأنزعُ إليها لولاه. كأنّ العبث الذي داخلي يرفع شعار "فليعش الموت؟!...".

أعلى قمّة الوجع أطلُّ على بقاياي، من هذه الشّرفة الطّبيعية ألتقط صورة بانورامية لرحلتي محدودة الادهاش، صورة لا تكاد تتشكّل حتى تتجزّأ وتتلاشى. للرّوح زفرة لكنّها ليست نهاية ترتجى أو تحتمل، أراني على لعنة المرآة أم أراها؟ كنت أتساءل في جنون وربّما في حكمة من الألم الذي استبدّ ب.ي،

أوجْهُها الذي يتكسّرُ على صفحة الماء كلّما تدحرجتْ موجةٌ نحو الصّخرة أم وجهي؟ أكان مزيجا لوجهين...؟

البرْدُ لغة أثيرة، ممكنة. المساءُ يُشيعُ رائحة خيبتنا مثل جارة لا تؤتمن، كأنّنا خارج الزّمن أو رديفين له، أتساءل عن شكل العالم بعدنا؛ وقد ظننتنا دائما عاشقين أبديين ملتصقين ك. "العاشقين الخجولين"؟ تلك اللّوحة التي نُقشت على صخرات "عين الناقة" المنطقة الأثرية جنوب مدينة الجلفة، لم تكن واضحة، تشبه نزق يحي وغرابته السريّين القابعين في ركن ما في مجاهيله، ملامحُها بالكاد تظهر ولكنها تفي برسالة الحبّ والخجل، منذ آلاف السّنين يهمّ بها وتهمّ به دون أن يفعلا شيئا. أخذني يحي لرؤية ذلك المعلم دون أن يبالي ممّا أعانيه ألما على حديد دراجته، كلّما تقدّم بسعادة نحو صخوره تضاعف ألمي وأنا أهتزّ وأكتمُ ألمي، يومها كان الكثيرون يتبرّكون باللّوحة، اعتقدوا أنّها رمز للخصوبة. اللائي جئن إليها أردن الولد، ألهذا الحدّ يرمز الحبّ إلى الولد؟ ألهذا الحدّ تتحوّل خصوبة العشق من نظرات نديّة إلى رغبة في التعدّد؟ يحي إعتاد أن يزور مكانه ولكنه سيوقف تلك العادة عندما انهمك في عالم النباتات والأشجار، لعلّه وجد لغته في جذور وأغصان السّهوب.

داخلي ما يشبه الصّخب والعنف الذين قرأتهما بلوحة "غرينيكا" لبيكاسو [1]، هل يتذكّر أحدٌ الخراب الذي حلّ بغرينيكا ذات ماي من سنة 1؟، لم أكن لأعرف عن غرينيكا وعن بيكاسو لولا الحبيب أستاذ التربية الفنية الذي تابع عمله لأقلّ من شهرين بالمؤسسة التي كنت أدرس بها، كان غريبا عن الجميع، اعتبروه معقدا ومريضا بينما أحبه التلاميذ كثيرا وتعلّقوا به، كنّا ندرس الرّسم ساعة واحدة في الأسبوع، وتتحالف باقي السّاعات مع الرّمادي، أحضروا

بعدها أستاذا جديدا لمادة التربية الفنية أفرط في مراقبة أدواتنا وأظافرنا وهيئتنا إلى أن انتهت السّنة الدّراسية دون أن نعرف لماذا غادر الحبيب؟

داخلي "غرينيكا" كبيرة جدّا وأتساءل أيضا هل ينبغي أن تمطر وأنا ألمحُ الغيوم تزحف في حياء نحو هذه الصّخرة؟ وماذا عن الأطفال هل يضحكون؟ هل بقي أحدٌ يمرح بعد إذ انفصلنا أنا وهي؟

أجتهد في تحديد موقف من مدارها، أهي عالم مواز أم أنا بعضها؟ هل كانت حقيقة أم حلما وهوسا واصلت ادمانه؟

اسمي لا يعني لي أكثر من أحرف مصطفّة

ألف،

دال،

راء،

ياء،

وسين تُوقف نطقهُ بحدّة

أيّ الوجهين أرى..؟!

ليس بالسّفح سوى وجهينا كأنّهما تمثالان من فضّة، ليس بالأفق سوانا نتوحّد كأننا كوكب مهزوم، والحياة تتراجع أمام صراخ دواخلنا المؤذن بالنهاية التي تخالف التقاليد، لا قبلة ولا عناق ولا دمع يصدَّر بعضا من انسحاقنا، نهاية

بلا ملح.

اسمها مدى وامتداد، اسمها كشف وسرٌّ في آن، إسمها أوسع من الأحرف وأقدر من نطقي لهذا لا أذكر اسمها الآن، هل نسيته فعلا أم أنّ وجوده المكثّف والمقتدر غمّ الذّاكرة فلم يعد بالوسع نطقه، أتذكّر الحروف جميعها، أستظهرها كما فعلت في الكُتّاب صغيرا "اللّيف لاشان عليه، والباء نقطه من تحت..."، أشكّلها أيضا "أَ نصب، بَ نصب..."[2]، يكفي أن آخذ بعض الأبجدية لأعثر على ذلك الاسم السّاحر الذي شرّدني ووطّنني كما أراد.

بدا "روشيه الموت" مكانا مناسبا لهكذا مواقف، أجلس أعلى الصّخرة مطلع القرن الواحد والعشرين، خراب القرن الماضي وغرينيكا التي داخلي ووجهانا الكسيران كلّ ذلك يتناغم مع هذا الفضاء، كأني أنجحُ وأنا شيخُ أهمِّ فصول الفشل على الاطلاق، أنجحُ من حيث لا أدري في رسم "بورتريه" لقرن النهايات والبدايات الأهمّ في تاريخ البشرية الأسود كالثور الصّيفي الجاثم على سماء هذا اليوم من أواخر "ماي"، بدا لي قرنا شرّيرا، هرما بينما كان هديره الموج الملتطم بالصّخور يعلو ويعلو، وتأخذ خيبتي كلّ منحى... تأخذ مكانة فتكبر وتتسع أكثر وأصغر... ها أنذا أتلاشى.

اعتدت زيارة المكان. كما اعتاد يحي زيارة صخور عين الناقة، هنا تتعرّى أفكاري وهنا أعترف بخطاياي المرّة تلو الأخرى وأعرف قبل أن أستلم صكّ الغفران أني مكرّر كلّ الخطايا، وهنا أشرب وحيدا على مذهب جدّي المخلوع، كان بوسعي أن أحقّق تفوقا وجوديا كالذي حقّقه جدّي مومن عندما تحدّى الجميع وحافظ على أناقته ووجاهته رغم أنه كان سكيرا ولا يحاور أحدا كما يفعل مع قنيناته الحميمة العديدة، لكنني أكتفي ببعض من طريقته، يحي لم يكن يشرب إلا

الماء رغم أنه مدخّن شره، هنا أكتب مذكّراتي التي أطعمها للبحر آخر كلّ شهر، أتباكي بشدّة كلّما شعرت بحاجة إلى ذلك، أتمرّن على النّحيب والعويل وأحاول إغراء الدّموع وأخطب في البحر كلّما استعصيتِ عليَّ؛ وأشعر أني طارق بن زياد أو ربّما الأمير عبد القادر أو نابليون ولعلّي الظّاهر بيبرس أو أيّ كان من الذين خطبوا في جيوشهم، ألا يشبه صوت البحر وكثافته أضخم الجيوش وأنا من على صخرة الموت قائدا وفاتحا عظيما يشرف على الانتصار والشّهادة والخلود، هكذا أصبح للبحر كلّ أسراري ولم تكوني أنت حبيبتي تعرفين عن تاريخي وبطولتي قليلا ولا كثيرا، لكنني أحضرتك مرّة هنا وأعجبك زهو عناصر البحر بي واحتفاء المكان بخطاي، كنتِ تشدّين على خاصرتي وتتمسّحين بي كقطة مهذبة ومتمدّنة، وحدّثتكِ عن غيابك كيف لا يصدُّ عنفه إلاّ ولاء هذا المكان لي أو ولائي له!

هذا هو المقام الذي يلتهم أيام الخواء عندما تتأخّرين أو تنشغلين، مقام لا يشبه صخور عين الناقة، هناك اجتمع الناس أمام العاشقين الخجولين طلبا للخصوبة، هنا يهوي الناس، يأتون للشّرب، لممارسة الجنس أو للانتحار، لا أدري ما الذي جعلك تتصاعدين، هذا المساء مقداركِ زاد عن كلِّ حدّ وإسمك يكبر دون جسمه، ينأى عن الأبجدية.

أنتِ تتكثفين... والبحر يمنحك شرعية أكبر، هو يعرف اسمك وجسدك وأنا لا أمسك الآن إلا ببعض روحك.

أرجعُ المرآة إلى حقيبتي؛ عادةٌ تعلّمتها بالمستشفى، كنتُ لا أعرف أحدا وكثيرا ما رحت أفسّر لوجهي حكاياه وكثيرا ما رأيته يتجمّع ليصغي إليها مشدوها ثمّ يتشظّى ويتفكّك مجدّدا.

عرفتها في القرن الماضي. لابد وأنّها كانت ستصحّح بغنجها الذي يتناسل معي "عرفتني والقرن العشرون يحتضر عندما كان يأفل كنت أشرق أنا زمنا واعدا"، وكنت أنا جريحا، غريبا، صغيرا ووحيدا في هذه المدينة وهنا يجب أن تقول: "وأتيتك أنقذتكَ، كنتُ مفتاح المدينة ووثاق استمراركَ حيّا وحقيقيا"، لقد كنتُ كاذبا أمثّل قبلها دوري، أما هي فكانت دائما صادقة، اعترفتُ لها لاحقا بأسرار يلفظها الصّخر ولم يضق صدرها بشيء منها! أشتاق الى صدركِ. الآن خلفتني لا أعرف أمِن قسوةٍ حفظت السرّ أم...؟

السّاعة السّابعة مساء.

بالكاد أعرف المخرج من هنا، ولولا الغيوم الأوروبية والأمريكية لكنا نعرف مخرجا، ألا يتسبّب الأوربيون والأمريكيون بدرجة أقلّ من باقي البشر في ألمنا؟ ألا يغيرون المناخ ويعدّلون من تفاصيل الحياة ويبذّرون الطّاقة بينما تخور قوانا؟ هي كانت لتقول لي: "لديك عقدة المستهدَف" وكنتُ أقولُ لها: "لديكِ عقدة هوية". الصّخور تشجّ رجلي اليمنى لأني أبادر بها، كلّما دمَتْ سال ماضيَّ. كانت جميلة، ممتلئة ومثيرة، ولكنها مسلوبة بصوت الحداثة القادم دون إذن، أمّا أنا فجلفٌ أقرب إلى الكلاسيكية والرّتابة، مأخوذة بحالات لا تنسجمُ مع تقاطيع يومياتها، تحبّ الألبسة المكشوفة عارية الصّدر والكتفين وتلتزم بألبسة كلاسيكية تسترها، تعشق الألوان وترتدي الأسود أو الرّمادي، طالما حيّتني بالفرنسية التي تصبح على شفتيها نشيدا عربيا خالصا، وكثيرا ما تقرأ وتهتمُّ بالغرب. أصِلُ الطّريقَ أتسمّر على قارعتها وأتصوّرني كفتيات الشّارع اللائي يسعين إلى الزّبون علنا، هذه تقنية تسويق لا ضير فيها طالما يظلّ للعهر تعريف واحد، لقد دميت هناك على "صخرة الموت" والصّخور الجارة كأنّي لم أعد عذراء...! ما زلتُ

منشغلا بالعاهرة التي كنتُ عندما توقّف أحدهم فانتابني وجلٌ.

– هابط لدزاير

– إيه... هابط هابط ياسر [3]

– أطلع يا خو

صعدت السّيارة بينما تخلّصتُ من فتاة الشّارع وريبة الزّبون؛ ألا يفترضُ أن تخشى بائعة الهوى زبائنها؟ تدحرجتْ الدّقائق إلى الثامنة والنصف، لا بدّ وأنه قرن سريع آخر، كنت أتأمّل عقرب الثّواني وهو يدور كأنه يهمسُ لعقرب السّاعات كلّما وصل إليه "سأعود بعد دقيقة"، بدا منضبطا ووفيّا يعود دائما عند وعده دون أن ينسى العبور على قامة الدّقائق الفارعة، رائحة الخمر كانت تحوّل فخامة السيّارة إلى ما يشبه المرحاض العمومي، يفترض أنّه زبون مميّز للفتاة التي خلّفتُها، ويفترض بـي أن أدوّن إعلانا شاذّا على سيارته كما أقرأ في المراحيض العمومية.

"الحمد لله يا خو رجع الأمان"

لم أنبس ببنت شفة، أكره الحديث عن الحالة الأمنية للبلاد، أكرهُ المتفائلين والحالمين بغير سبب، أكره تذكّر كلّ الرّعب الذي عشّش داخلي دون الكثيرين، كأنّ الرّجل انتبه إلى صمتي فغيّر الموضوع

"ربما أنتَ في سياحة؟"

أردت أن أصرخ في وجهه المتدفّق من ملامحه الأولى "أنزلني هنا"

لكنني تراجعت وبادرته بالغباء الاجتماعي المناسب:

– بعت سيارتي لهذا انتابني شعور بالعري

– أنا لم أمش منذ تخرجي من الجامعة

قلت في نفسي: أكيد منذ تخرّجت من الجامعة وأنت تنهبُ حظوظ الآخرين في بلد لا نتكافأ فيه إلا في الموت، وكأنّي به استشعرَ شيئا مما يدور داخلي.

"تعبنا، تعبنا كثيرا من أجل الوصول إلى درجة ترضينا على الأقل نستطيع أن نعيل نساءنا وأبناءنا"

نساؤهم...؟؟ يبدو تماما كم يشقى بهذه الكرش الضّخمة والسيّارة الفخمة، تذكّرت أبـي الذي وهب البلاد كلّ سنين شبابه وكهولته ولم يحظ بمكافأة على إخلاصه وتفانيه، لم يوفر حتّى ثمن العمرة أو الحج وكلّما تحدّثوا عن الحج أو العمرة فاضت عيناه اشتياقا إلى جدّه رسول الله؛ هكذا يقول الشّيوخ في مدينتي عن الرّسول، أبـي كذلك كان متعبا. رفعت رأسي فاذا نحن ندخل "ليزاسفوديل"[4] بحي "بن عكنون"، أصبحت الآن على يقين أن الرّجل زبونٌ وأكاد أفهم مؤدى "نساءنا" التي لفظها منذ قليل، توقّف عند نهاية الشّارع، فتحت الباب دون أن أشكره، رميت برجلي الدّامية الباردة خارجا وأدركت أنه ينبغي لي أن أتّسم ببعض من اللّياقة، أنقذني صوته الذي بدا وكأنه يصحو من الثمالة قبل جسده الكتلة المتعبة...!

– ربـي يعاونك يا وليدي

– يرحم والديك يا خويا

كان له وجه ساخن، كان لي وجه باردٌ.

لعلّه كان مشتّتا بيني وبين فتيات اللّيل الجامعيات اللّواتي يرقدن بالحيّ الجامعيّ المحاذي لوزارة الأشغال العمومية، في الغالب هنّ مبهورات بالمجتمع اللّيلي، بالسّيارات الأنيقة، بالهدايا وربّما بالويسكي والرّيكار والباستيس والرُّوج وكلّ الخمور التي يعرفن، أجسادهن في خدمة ليلية مستمرة على الأقلّ أصبن الشّهوة والمال والنفوذ والشّهادة، والتي تسأم تعود من حيث أتت بعدما تعيد تأهيل الحياء والشّرف الذين يحوزهما ابن عمها المغدور في احتفال عظيم. إنه عالَمٌ جبان، أنا عندما كنت فتاة شارعٍ لربع ساعة لم أكن لأخدع أحدا.

وماذا عنكِ أنت؟ بالقدَاسة التي تحملين لم تعودي لي، ربّما لأني المدنّس وأنتِ المقدّس لم يكن يصلح أن نظلّ معا، أفكّر الآن لو أني اتّخذت عشيقة من بنات الحيّ الجامعيّ كان الأمر سيغدو صريحا وواضحا، فاسق وقروية تتبضّع من المدينة شهوةً وحياةً وحريةً ورجلاً في منتهى التحضّر، لكنتُ أنا المساحة التي توفّر كلّ ذلك وعندما تعود هي إلى القرية أو المدينة البعيدة ستحتفظ بذكريات مثيرة إذا ما قيست بحياتها اللاّحقة الآسنة، أمّا أنا فكنت سأجد لي أخرى، وهكذا كلّما حان وقت رحيل واحدة بكت قليلا على صدري المبتذل، ولكنها لن تنسى أن تطلب مالا إضافيا في العشاء الأخير.

وحدكِ كنتِ مدينةً وحضارةً ومذهبا متفرّدا وفنا في الإنوجاد، فمِن أين أمضي إلى أين؟

ترى ما الذي تفعلين الآن؟

حتما أنت تعيدين توضيب حياتك على عزف فارسك الشّهم، ترتبين أولوياتك بينما لا أثر لي في ثانوياتك، هل تقرئين؟ تذكّري إذن أنني طالما حدّثتك عن حلم الكتابة قبل أن أصبحَ مشرّدا فارّا من السّكين والرّصاص والسّجن، تذكّري أنّنا كثيرا ما كنا نقرأ معا وكنتِ تندهشين من كلّ هاته الثقافة التي لديّ وأنا لا أملك كتابا واحدا ولم أكن أرى الثقافة التي ترين، تذكّري وأنتِ تنفين ذلك الصّعلوك من أفكارك إذ ينام رجلٌ جديد على بطنكِ رقْصنا معا، لاحظي أنّ رجلكِ يحظى بأمرين لم أعد أملكهما "الجِدّة" و"بطنك"، أمّا أنا فقد بكيت لأجلي أكثر مما كنت لتبكين لو متُّ، كنتِ من قال لي بالمستشفى "لديك سطوة على الزّمن وعليَّ، أنتَ أكبر مما أنت عليه"، أنا لا أهذي لقد قلتِ هذا وكتبته لاحقا في رسالة، لقد كان يُعدّ نفسه ليكون أفضل، لا يهم الآن إن كان الأفضل أو اللاّشيء، إن كان سكّيرا أو زاهدا، لا يهمّ الآن من هو وما حكايته، ثمّ إنّ مجرّد التّفكير في حكاية الموت والمنفى والخوف والرّجاء والجوع والمرض والخيانة كفيل بالموت، حكايتكِ تبدو أهمّ وأبهى وأنت تركلين المدنّس خارج مقامكِ المقدّس.

وأنا أنخلع كان صوتكِ يأتي من خلف جهل البنايات الباردة بتاريخنا القديم، وضحكاتك إيقاع يأخذ الأشجار ويعيدها في تموّجٍ يذكّرني برقصكِ.

-2-

الطّفلُ الذي كنته ارتدّ، فرّ مني سريعا فلم أتمكّن من صوغ لعبة وعشقها، ولا نافست رفاقا صغارا وهزموني أو هزمتهم، لم أقبض على أية صورة واضحة يمكنني أن أواجه بها هرمي، الطّفل الذي كنتهُ كان أقرب بنظراته وملامحه إلى الكهل، وكانت مشيتي ويديّ خلف ظهري تثير سخرية وتعجّب الجميع، رغم ذلك لن أتنازل عن مشيتي تلك. ثمّ إن الحياة لم تكن في زمني ذاك تحتفي بالطّفولة، الناس كانوا مشغولين عنّا بالغد الضّبابـي، لا أحد كان يمكنهُ التقاط الألوان التي تفيق معنا كلّ يوم ويمزجها ليحدث الفارق، كان لون التراب يهيّج فيّ شعورا غريبا، وكنت كثير النظر إلى الأرض، عندما تمطر يصبح شغفي بالأرض أكبر، أردت دائما أن أحتفظ برائحة التراب التي تصعد منعشة كلّما أمطرت ولم أهتد إلى طريقة لذلك.

ربما جئتُ في لحظة لا طفولية، العالم يتشكّل من جديد وأنا أفتّش عن طفل يمضي بسرعة الضّوء إلى أرض لا تمنح رائحة بللها ولا ندى زهورها.

أيقظتنا الفجيعة من سنوات الصّبا الأولى إلى وعي جارحٍ ماكرٍ، باكرا تشكّلَ وعينا على الأصوات الصّاخبة، الرّصاص والقنابل، رائحة الموت والدّخان

وحمرة النّهاية، من أكتوبر الفوضى والخراب من القرن البائد المبيد إلى الرّبيع الذي حَمَلها إليَّ لم أكن لأخْبِرَ سوى الموت. من يومها، من يوم أخرجونا من المدارس لنجد خرابا، دخانا وأمكنة تختلف عن صباحها، لم يفكر أحد في التكفّل بصدمتنا أو تلوين الرّماد الذي استوطن دواخلنا، ودَّعنا الألوان صغارا، أذكر أنني في الغد كنت أحمل حمامة بيضاء جئت بها من بيت جدتي، كانت هي خائفة ترتعش، ريشها يتقلّص كلّما بللّها عرق يديّ الصّغيرتين، لعلّها كانت عارية وباردة، حدّقتُ في العسكر المنتشرين في كلّ المدينة لا أدري ما علاقة هذا بذاك، كأني أتّهمهم بترويع الحمام! لم أنس يوما دموع الجندي الذي كان يقف عند باب الأروقة التي أحرقت ونهبت، كانوا يتحدّثون عن انتقاضة شعبية ولم أكن لأفهمَ ما يعنون بالحريات والدّيمقراطية والحزبية. بكى البعض وخرج الجميع في الغد يهتفون باسم الرّئيس الذي بكى أيضا على التلفزيون.

سلّمونا لاحقا وبسرعة لصخب "الفيس"[5] الذي ملأ الدّنيا وبَلَعَ الآلاف من الشّواذ وذوي العقد والآلاف من السّارقين وذوي السّوابق، وعددا من المخلصين، كنت أرى النهاية. داخلي مقتُّ كلّ سلوكاتهم لكنهم أخافوني، خفت من الله طالما هو معهم فهم على حقّ، كنت إذن ضدّ الله وأنا الذي لم أتأخّر يوما عن الكُتَّاب وحفظت متن ابن عاشر وأكاد أختم القرآن.

كنت في الحافلة أنا وأمّي عندما صعد أحد عرّابـي الحركة الجهادية في مدينة الجلفة، لم يكن وقتها أحد يتصوّر أنّ الجزائر ستشتعل قريبا، أشهر ذلك الرّجل سلاحا غريبا من تحت برنسه البنّي، صاح بالجميع موجّها باشارات من سلاحه في الوقت نفسه "النساء منا، والرّجال منا... واش عتروس ومعزة مخلطين"[6]، تفرّق الرّكاب إلى فريقين تحت أمر الرّجل وعمّ الصّمت رحلتنا القصيرة،

"كلاشينكوف" هذا هو اسم السلاح الذي شهره الأمير قبل أشهر من إمارته ومن وصول العاصفة.

مضت بعدها كلّ سنين الطّفولة سرّا، على هذه الأرض لم يعد من مكان للطّفولة، كبرتُ عقدا من الزّمن في أقلّ من أربع سنوات وبدأتُ أتساءل ما الذي يجري، مرّة اقتنعت أنّ القيامة قامت وأننا لاندري، ورحت أقنعُ الأصدقاء أننا نتعذّب وأنّنا متنا دون أن نلقي بالا لموتنا المفترض، سخر الرّفاق منّي وورّطوني مع أستاذ الفيزياء الذي كان يحوّل حصّته إلى حصّة فقه؛ فأنّبني وجعل منّي حديث العامّ والخاصّ ولم أكن لأتخلّص من سخرية بقية الأساتذة لولا اعتقال أحد زملائهم ليكون حديث السّاعة، أستاذ الرّسم الحبيب قال لي: "لا تخش أحدا"، وطلب منّي أن أرسم أستاذ الفيزياء في جهنم وأن أضحك عليه طوال الليل، ولم أفعل ذلك إلا في وقت متأخّر.

في الخامسة عشر كنت أبحث عن تفسير لما يجري في مدينتي وأتساءل من هو الرّئيس الموعود ولكنهم قتلوه عندما بدأتُ أتردّد على المسجد "شرّ ميتة" هكذا علّق سالم حشاوش صاحب اللّحية الحمراء الذي أصبح أبا الحسن، قال أيضا أنّ نصر الله قادم وهو يربت على كتفيّ "بأمثالك أيّها الجندي"، خاطبني أنا بالجنديّ دون شباب الحيّ الذين يرون فيه أعلم من في المدينة رغم أنه لم يصل إلى الثانوي، طرد باكرا من المدرسة وعاش أغلب طفولته في السّوق المغطاة وسط المدينة، لقد رأيته غير مرّة في التلفزيون وربّما لم أره إطلاقا وتخيّلته، داخلي نشوة ما... عظمة ما، أكاد أشعر أنّني بطلٌ موعود، ولكنني أريد أن أبكي، صوتٌ ما كان يحدّثني عن حداثة سنّي وعن دليلة التي تدرس معي في الاكمالية إذ كيف لجنديّ أن يجلس للّهو مع فتاته، لم يكن الأمر بالضّرر الذي تصوّرته، لقد

هيّأني الجوّ العام في تلك الاكمالية التي تقترب من ثكنة لنسيان دليلة بالسّرعة ذاتها التي تعلّقت بها، ثم إنّها بدت إمرأة في أقلّ من ستة أشهر، خشيت من صدرها الذي نما أكبر من يديَّ، رغم أنَّها تصغرني بأكثر من سنتين، وكنت مبدعا في البقية فرُحتُ أكذب وأكلّم الآخرين عن الجهاد ووجوبه، عن الطّاغوت الذي لم أعرفه، عن الإخوة الذين استشهدوا وعن كراماتهم، كيف يلقون حفنة تراب على دبابة فتذوب، وكلّما جلست إلى عجوز أبكيتها إذ أحدّثها عن الأمر الجلل الذي نحن بصدده وعن الرّسول وصحابته وكيف لم يبدّلوا تبديلا، وكثيرا ماكنت أصوغ الأحاديث كاذبةً لقضاء مأرب أو لمنع ما أرفض، لم أختم القرآن وأفلت مني ما حفظت وجادلت شيخ الكتاب "سي مبروك" وسببته أمام زملائي السّابقين، كان بالنسبة لي ساكتا عن الحقّ مهادنا للطاغوت، أصعب ما في الموقف كان جارنا الشّرطي، لم أكن لأغلبه كان جامعيا عارفا بالدّين والسّياسة ما لا أفهم، قال لي أبو الحسن "إنّه مدرّب على هذا، الدّولة درّبتهم لكن نهايته..." لا أذكر إن قال قريبة أو على يدي.

نجحتُ في المرور إلى الثانوية، كان توجّهي علميا إذ كنت أحلم بتخرّجي مهندسا أسوة بوالدي، لكنّ أبا الحسن رأى أن أدرس العلوم الشّرعية، غيّر توجّهي وأخبرني لاحقا أنّي سأدرس في الثانوية البعيدة جنوب المدينة، وكان لأبـي الحسن ما أراد، إلتحقت بالثانوية التي تتشابه في مظاهرها مع مدرستي السابقة، لا أحد يفكّر في التّحدّث إلى زميلته ولا أحد يتصابى أو يلهو. كبارٌ حدَّ الشّيخوخة ولكن بلا حكمة، فجأة لم أعد أريد شيئا سوى الظّفر بفتاة أعجبتني وانتهى الأمر الجلل بالنسبة لي، ولم أعد أتردّد على المسجد، الحقيقة أنني تركت الصّلاة وتدبّرت أشرطة أم كلثوم وفيروز وعبد الحليم وانقلبت على برباروس[7].

كان بوسع أب.ي الحسن أن يكون انسانا مميزا، رغم أنه يكذب ويتوهم أحيانا؛ إلا أن بقايا الطّيبة عالقة بابتسامته حتّى وإن حاول تغييبها، والده "محّاد القهواجي" هو عقدته، فقد وصل صيته إلى كلّ أهل المدينة، كان عاملا في مقهى جدّي وقد برع في تحضير الفرارة والشّعرة[8] والشّاي وغيرها من المشروبات التي يقدّمها مقهى جدّي المندثر، لم يختر أبو الحسن هذا الاسم ولكنّه كنيته بعد الهدي، أمّا سكان الحيّ فظلّوا إلى وقت قريب ينادونه "حشاوش" وإذا أرادوا الايضاح أضافوا "وليد القهواجي"، تأخّرت في معرفة إسمه الحقيقي سالم، وبدا لي أفضل من اسميه الآخرين، ولكنها رحلة أسطورية من لقب جارح إلى إسم فاتح، ورغم أني أعرف سبب التّسمية الأولى كون الرّجل عمل في السّوق المغطاة صغيرا كبائع للحشاوش[9]، إلا أني لا أعلم إن كان لديه ابن في مكان ما إسمه الحسن.

"لاتسألوني ما اسمه حبيب.ي" هكذا كانت تصدحُ فيروز بغرفتي، لكنّ أبا الحسن سألني ذات مساء عندما زارني على غير العادة ببيتنا، لم يكن أب.ي يستصيغ هؤلاء الملتحين لكنه أستقبله كعادته مبتسما، خرجت معه، ذهبنا إلى المسجد، صلّينا المغرب وخرجنا إذ لم يكن يُسمح لأحد البقاء بعد الصّلاة سوى القيّم الأعور المنبوذ من "الخوانجية"[10]، خارجا كلّمني عن تردّي أوضاعي كأنّي الجزائر، وعن تراجع إيماني وعقيدتي كأنّه الله، ولم يخفني سرّا بأنه يعلم بأمر الفتاة التي شوهدتُ غير مرّة معها، ثمّ صال وجال وخطب فيَّ حول الخلق الشّرعي وعمّا ينتظره منّي الاخوة المجاهدون وطلاّب العلم الشّرعي، أردت أن أصرخ بوجهه فلتذهبوا جميعا إلى السّعير أنا أريد "ورده" لا أكثر ولا أقل.

"هل تحبّ هذه الفتاة؟"

سألني الثعلب بلطف العارف بالحبّ، لم آمنه فصمتُّ

– أسألك إن كنت تحبها إدريس؟

– أستغفر الله

أجبته ثعلبا

"إذا أردت أكلّم والدك فنخطبها لك"

لتوّي أتخطّى السّابعة عشر لابدّ وأنّ أبا الحسن مريض، مريض جدّا، يزوّج نفسه أولا وهو في الثلاثين، قاطع شرودي:

– فكّر جيّدا والأخوة مستعدون لمساعدتك

– لن أفكّر في شيء لا أرغب في الزّواج وشكرا للاخوة

افترقنا وأنا أدعو الله أن ينتهي هذا المكنَّى بأبـي الحسن، أتساءل إن كان فارّا من التّاريخ، ألم يكن صاحب الكتاب الذي قرأته مرارا بكلّ حبٍّ وتفانٍ أبا الحسن أيضا، كان كتاب "أدب الدّين والدّنيا" رائعا بالنسبة لي، أتذكّر كيف تعلّمت منه الكثير من السّلوكات ونهيت من خلاله عن الكثير منها، "أبو الحسن الماوردي"[11] هكذا يُسمّى صاحبنا لعلّه تماهى معه فأصبح إمامًا مربيًا وعالمًا في السياسة وأمور الحكم، ألا يريد أبو الحسن الجديد هذا أن يغيّر الحكم والحكام؟ حريّ به أن يكتب "الأحكام السلطانية"[12] مجدّدًا طالما يحدّثنا عن الإمامة والخلافة وأحكامها والوزارة وأقسامها وشروطها وإمارة الجهاد والغنيمة والجزية والخراج وما يختص ببيت مال المسلمين، وليعد بنا إلى القرن الثالث

عشر ليطبعه، لستُ أدري كيف نجا من الاعتقالات العشوائية عندما تغيَّبَ لسنة بالعاصمة، كثير من الطّيبين زُجَّ بهم في المعتقل في حين تخلّص هذا الثعبان من "رقان"[13] سنة لا تعدو أن تكون ساعة وعاد أشدّ اعتدادا بنفسه، يحدّث الآخرين عن تجارته الرّابحة في مواد البناء واستيراده للسيراميك. كأنه المسؤول عنّي، سنة واحدة كنت فيها عاشقا وحسب، كنت فيها مراهقا كما يجب لا جنديا من جنود اللاأدري، سنة أدركتُ فيها جسدي وقلبـي وروحي، وأحببت الله الذي خلقني وخلق وردة، من أين أتيت يا حشاوش؟ من أيّ قمقم تطلع بيني وبين وردتي الصّغيرة؟

عندما دخلت البيت وجدت أبـي حانقا عليّ أمّا أنا فكنت حاقنا، بالكاد سلّمت لينفجر بوجهي وأكاد أنفجر...

- أنت لا تعجبني مع أولائك "الخوانجية" احذر ياغافل يوصلوك للمشاكل ناس لاخدمة ولاردمة

- لا مشاكل ولاهم يحزنون نعرف مليح مخروجي

قمت متجها إلى المرحاض ربّما أستطيع أن أتبوّل أمتارا من الأفكار السّوداء بينما كان صوت أبـي يلاحقني "ياعفريت ستغرقنا في المشاكل، الدّولة ليست غافلة وذراعها طويلة"

وأنا لن أغفل أيضا...

في الصّباح استيقظت على صوت الرّصاص في الحيّ، اجتمعنا في الرّدهة مشدوهين أو متعوّدين أو مستشرفين، لم أتبين ما الذي كنّا عليه، توقّف

الرّصاص... لم يتوقّف الرّصاص!

صوت نبضي صدّ سمعي قبل أن أفهم أني مازلت آمنا. كم كنت مهيئا للخوف... كم كان الخوف مجنونا. عدت إلى فراشي تململت فيه ولم أنجح في إغفاءة صباحية قد أحتلم فيها، أردت أن أخرج فمنعتني أمّي، بالكاد فكّرتُ أن أقنعها ليطرق الباب بعنف "أستر يارب" علّقتْ أمّي التي اصفرّ وجهها ووجهي! أيّ وجه لي وجه المحبّ أم وجه المجنّد بلا رتبة ولا جيش ولا قائد ولا حتّى عدو؟ فقط أبو الحسن ليرويني كما يشاء قصّة مثيرة أو حقيرة. فتح أبـي ليسأله الملثم العملاق

- إدريس وين؟

- وش كاين ابني لا علاقة له بأحد، ولدي لم يفعل شيئا

وكنتُ أذوي، أردتُ أن أبكي، أن أحتمي بأمّي، أن أرى وردة، أن أتّهم أبا الحسن والخوانجية والمارودي، جميعهم متّهم، أردت أن أدرس الهندسة المعمارية وأنجو كوالدي، لم أسمع شيئا بعدها، استسلمت لأيادي العمالقة الملثمين ربّما كانت أمّي تبكي وأبـي يقسم بأغلظ الأيمان أني مؤدب وبريء، تذكّرت عيسى الصيدلي، عزوز الخباز، مختار والآخرون، انتهيت مثلهم، ماتوا بعد أن أخذهم ملثمون، وإلتزم أهلهم الصّمت لأنه ليس بوسعهم قول شيء أو إتهام أحد، مختار جارنا السائق أخرجوه من بيته إلى المجهول، بكى على عتبة الباب وترجاهم أن يتركوه لأنه يعيل ستة أطفال أكبرهم في العاشرة وأصغرهم لم يصل أربعين يوما، أحدهم قال لزوجته أغسلي يديك منه لن يعود مجدّدا وصاح به "امش والله ويكون عندك اثنى عشر طفلا".

لم يتمكن أحد من الحديث عن مختار بعدها، حتى أهله صمتوا ولم يفتّشوا عن ابنهم، وسرعان ما خرجت زوجته للعمل في بيوت الناس لأن كلّ مصادر الحياة توقفت.

وداعا وردة، وداعا أمّي، الآن بي رغبة لضمّها، للبكاء معها، وداعا أبي وأخويّ، يحي أين أنت أريدك أن تعصف بهم، احمني يا يحي فأنا مرعوب حدّ الجنون.

كانت السّاعة منتصف النّهار عندما رموا بي في زنزانة، وجدتُ أبا الحسن، وجدت مبروك الذي كان أفَّاقا سارقا قبل الهدي، وجدت الكثيرين ممّن أعرف ولا أعرف، أردتُ أن أقول شيئا لأبي الحسن أومأ لي أن ابتعد، فهمت أنّه لا أحد يعرف الآخر ولكنني الأصغر لابد أنّهم لن يقتلوني ذبحا، انتظرتُ أن يفعل أبو الحسن شيئا أن يصرخ بالجيش الاسلامي فيطبق على الملثمين، يبدو أنه لم يعد من جنديّ سوايا، لعلّ أبا الحسن ينتظر هو الآخر ما الذي سأفعل، لم نتبادل النّظرات لوقت أطول طالما سيدخل الضّابط مكشوف الوجه، أنظر إلى أبي الحسن فاذا هو طفل بريء، ربت الضّابط على كتفيه فأفرط في إظهار الخوف. قطٌّ بحجم دب.

– ماذا يا حشاوش ألن تحلق هذه اللّحية؟

– سأفعل بس... أنت... ت...

كأن أبا الحسن أراد أن يشرح للضّابط ضرورة حلق اللّحى، والظّروف العامة للبلاد، لكن الضّابط انفجر في وجهه:

"من تكون أنت لتعلّم الآخرين ما يجب وما لا يجب أيها القبيح، سيأتي يومك وسأقتلع لسانك، تتكلم عن الدولة والطاغوت والجهاد، وأنت الأسوأ تعلّم كيف تتجح وأطع والدك... إني أحذّرك في المرّة القادمة... أيّها الرخيص"

أخيرا... أخيرا أرى أبا الحسن غير أبـي الحسن، أخيرا يتهاوى إلى قبحه، تحطّم الزّلم، راقني الضّابط السّافر محياه وسجّل لي نقطة، كلّ الذي أردت كان لي، أبو الحسن لاشيء أريد الآن أن أصفعه.

أخرجني الضابط بعد أن مسح بعينين ثاقبتين أوجه البقية الذين بدوا كأطفال أمام وحشٍ، في الحقيقة رأيت أحدهم يتبوّل تحته ويرتعد، لم يكن منتم إلى أية جهة، جاء بالخطإ، كنت أعرفه فهو معلّم أخي لهذا فقد كتمت أمره بعدها، أما هو فحفظ الجميل وتفانى في الإغداق على شقيقي بالنقاط، خرجت مع الضابط مطمئنا شاعرا أنّي سأنجو. خارجا كان عبد الرحمن جارنا الضّابط زوج وردية الطّبيبة التي أغرقتني بأفضالها وحبها، لم يكن لعبد الرحمن أولاد، أحبّ كلّ شباب الحيّ حتى "الخوانجية" منهم، لم يكن حاقدا عليهم رغم أنّهم لم يكنّوا له الاحترام بل أصبحوا يتوجّسون منه، رأيته يحمل قناعا كالذي يكسوا به الملثّمون وجوههم.

أكان منهم، هل هو طاغوت؟ أمجرمٌ عبد الرّحمن؟ و"حشاوش" أبو الحسن تمثال ثلجيٌّ لا يصمد أمام الضّوء، على أيّ أرضٍ أقف؟ روَّعتني نظرات عبد الرحمن الطّاغوت، خفتُ أن أتبوّل أنا الآخر تحتي، حدّق فيّ طويلا قبل أن يسألني إن كنت جائعا بأسلوب فهمت من خلاله أنّنا سنغادر المكان، أجبت في كامل الأدب الذي يحتمله هذا الإدريس السليب "لست جائعا عمي عبد الرحمن"

- عمّك...! يعميك ويسلّط القضاء عليك، قبل أشهر لم أكن كذلك

- لكنني تغيرت، صدّقني أنا لا أتردّد على المسجد ولا أعرف هؤلاء، أعتذر لقد أخطأت

- يابني هؤلاء ليسوا شيئا إنهم شرذمة من المحبطين لا غير وأنت مكانك في العلم وطاعة والديك، مازلت صغيرا على البولتيك وتكسار الراس

أمسكني عبد الرحمن من ذراعي، شدّ قليلا فتسرّبت إليّ صورة عبد الرحمن الضابط، إنه يعتقلني، لم آمنه تماما، التفتَ إلى الضابط الذي أحضرني وخاطبه بصوت خافت بين الاستجداء وطلب الجميل:

- عاملهم برفق إنهم أولاد الحيّ.

- نشرولهم الكيوي... تصبح على خير سي عبد الرحمن

ودّعنا الضّابط وقد هزّ رأسه ضاحكا وكأنه يجيب طلبه، ركبت سيارة مدنية مع رجال مدنيين لا يخفون أسلحتهم ولم يكن معي عبد الرحمن، أوصلوني إلى المنزل دون أيّ حديث لا معي ولا مع بعضهم، كان الراديو وحده يرغي بلا موسيقى أو وضوح، إنه طقس بين الموت واللا موت، لم أكن لأرى الحياة...

السّاعة تسترخي عند السادسة مساء، الفصلُ شتاء، لهذا أدخل الحيّ فلا ينتبه لي أحد، أقرعُ قرعا خفيفا على الباب، أسألني أدخل بطلا، رجلا على أمّي أم أُمثل دور المحبط المصدوم فأجد لي مخرجا أمام نتائج الدّراسة التي لن ترضيهم؟ أخي شريف كان يمشي ببطء نحو الباب، أخبر حركاتهم جميعا سيسأل الآن من الطّارق؟ أُجيبُه قبل أن يسأل، فَتح الباب فرحا، راح يعانقني ويبكي،

سحنته تجعلك تحبه إنه ملاك بشري.

– الحمد لله على سلامتك خويا إدريس ماما رايحة تهبل عليك

– لن يجنّ أحد بعد اليوم يكفي الجنون الذي يعصف بالعالم

بدأت أشعر أنني كبرت وصرت مطلوبا لدى الحكومة، وعاشقا والأهمّ أني شاهد على سقوط حشاوش أبى الحسن.

إنّ سقوط أبـي الحسن في تاريخي مثل انهيار جدار برلين في العالم بعده لم يعد للإنسان أهمية، وابتلعت أمريكا كلّ الأحلام.

لن تعود هنالك حدود بين أفكاري وسلوكاتي

مضت ليلة بيضاء، الكُلّ يحدّق بـي لكأنّهم لايصدقون نجاتي. بـي رغبة لصوغ بطولة ما، لكن جارنا عبد الرحمن قد يكشف زيفها، بكت أمّي كثيرا وأنّبتني أكثر، وأخفى أبـي دموعه، أمّا شريف وجمال أخويّ الجميلين فكأنّهما في العيد عندما توقظهما أمّي باكرا ليلبسا الجديد ويجمعا النقود المريضة، أشعر أنّهما أكثر طفولة من البارحة، أكبرت جدّا أم صغرا قليلا؟

مرّ أسبوع على الحادثه نسيها أهل الحيّ وأطلق سراح البقية بما فيهم أبو الحسن حليقا، وكان ذلك بفضل توصية عبد الرحمن، أصبحت أشعر بكثير من الحياة. صحيح أن أخبار الموت كانت أكثر من أخبار الولادات، الأفراح والأعراس لم تعد سوى طقوسا سريّة أو ولائما محروسة. دويّ قنبلة، صوت رصاص، عويل وصراخ هو المشهد العام، بدأت أنسلخ تدريجيا عن الأخرين، ركّزت تماما مع وردة لا نلتقي إلا سرّا لكنها تهتف لي أو أهتف لها، كان الأمر

مابيننا متعة ولذّة ورغبة...

أصبحت أفكّر في مآلنا بعد أن وجهوني في آخر السنة الدّراسية إلى الحياة العملية، لم أنجح في الثانوية التي قرّرها لي أبو الحسن. تصوّرت أني أتأخّر في إيجاد مخرج لي، لم تفارقني أحلام المال والوجاهة، أتنقّل من فكرة إلى أخرى كأني أملك من المال ما يكفي لنا جميعا، سأمارس نشاط جدّي وأفتتح لي مقهى شعبيا، ربما ينبغي أن يكون لي محل ألبسة نساء، أو مكتبة، تداخلت الأفكار في رأسي وبدت كلّها أنيقة بحيث لا تنال من شكلي ومظهري، في النهاية وجدتني أتاجر تجارة بسيطة في قطع غيار السيارات المستعملة، أمضي اليوم متنقلا بين ميكانيكيي المدينة لاقتناء بعض القطع التي يتحايلون فيها على الزبائن، واللّيل مع شريكي ننظّفها ونلمّعها، كان الأمر أصعب مما توقّعت، لم أجد سهولة في مواجهة الزّبائن وسط سوق مكتظة لبيع كلّ السلع، في أوّل درس أتلقاه من رجل سوقيّ جدا قال لي: "لا تحتقر أيّ تفاهة، كلّ ما يواجهك في طريقك إلى السّوق أجلبه ستجد له زبونا"، كان الرّجل السّوقي يبيع خيوط هاتف وأحذية قديمة وغربال ومنفضة مكسورة وعددا من المحركات الصّغيرة التي اجتثت من أجهزة إلكترونية، في البداية اعتقدت أنّ الرّجل مجنونٌ، لكنني اكتشفت أنّه يبيع كلّ ما يعرضه، حتّى الولاعة التي لا تعمل وجد لها زبونا، كان الدّرس مفيدا فقد وجدت أنّ بضاعتي أهمّ وأرفع، لهذا تسلّلت إليّ بعض الثقة فاعتدلت في جلستي ورفعت نظري قليلا في مواجهة الأمواج البشرية، كنت أفترش وشريكي الأرض، نضع القطع على خيش بمساحة ثلاثة أمتار مربّعة اجتهدت أمي في خياطته من بقايا خيش الدّقيق، في آخر اليوم الأول من العمل في السّوق اقترح عليّ جاري السوقيّ الكبير أن أبيعه الخيش، أغراني بمائة دينار فلم أتردّد في الموافقة، أخذ الخيش ونادى على أحد الباعة الذي قدّم له مائتي دينار أمامي،

كان هذا الدّرس الثاني، الدّرس الثالث في البيت عندما لم أعثر على خيش لليوم الموالي، بدا المدخول جيدا مقارنة بالسّعر الذي اقتنينا به القطع، لم أكن أعرف كلّ بضاعتي، فكثيرا ما يسألني أحدهم عن نوع قطعة أو مدى تطابقها مع سيارته فلا أجد ما أردّ به، جاري السوقيّ يتدخّل ليقنع الزبائن بأنّها مطابقة تماما، كانت تجارتي بسوق الجمعة أقرب إلى الحلم الأسبوعي بفعل الاكتظاظ والاقبال الكبير على سوق مليئة بالخردوات، أمّا باقي الأيام فأمضيها وسط المدينة، في الجمعة الموالية توقّف جسم ضخم من إخوان المدينة يقلّب القطع، عثر على مرآة عاكسة لسيارة "ريتمو" كاللّتي يملكها فقرّر أن يأخذها

- كم سعر المرآة يا طفل؟

- مائتي دينار

- أعطها لي بمائة دينار واقنع

- ما فيهاش

يسحب من جيبه ورقة مائة دينار وقطعا أخرى "خذ هذا يكفي سعرا لها" ويغادر بعد أن حرّك رأسه متأسفا، كان ذلك الرّجل هو ناظر الثانوية الذي رسّم طردي منها، واعتبر أنّ الدّراسة موضوع لا يليق بأمثالي، أخذ المرآة العاكسة ليرى خلفه أمّا أنا فلن أنظر خلفي، لن أسمح له بأن يحبطني، واجهت الجميع بحدّة ذلك اليوم وبعت جيّدا.

أبي الآن لا يأمنني، بدأت أدخّن وجمعت قليلا من المال، لن يفي بأيّ غرض بعد ثلاثة أشهر من السّعي المتواصل أعيد حساب رصيدي وأتساءل ما

يمكن لهذ المبلغ أن يفعل، ضحكت كثيرا رفقة شريكي في التجارة "السعدي".

كنا أنا والسّعدي نبدو أقرب إلى الفاقة منا إلى تاجرين يسعيان لجمع المال، نحمل خيشنا في كثير من الانهماك كأننا الوحيدان اللّذان يعملان في البلاد المتعبة، يديّ تحوّلتا إلى لون غريب وأظافري تحتفظ بسواد يليق بالتحدّي الكبير الذي أطلقته رفقة شريكي لنكوّن ثروتنا المأمولة، آخر مرّة ذهبت فيها إلى السّوق ضيّعت الكثير من القطع وخرجت مدفوعا بموج هادر من البشر المرعوبين بعد إطلاق أحدهم إنذارا بوجود قنبلة، في الطّريق تعرضت وشريكي لتعنيف ودفع من الشّرطة، قال لي السّعدي ونحن نمشي تحت سماء من الهزيمة لا نهاية لها "على الأقل كان بوسعهم إحترامنا، ألا يمكنهم تفتيشنا دون سب ودفع؟"، قلت له "نحن مجرّد شعب".

مساءً إتصلت بوردة فلم أنجح في الحظوّ بصوتها، أردت أن أهديها قرطي ذهب إشتريتهما، إحساسٌ ماكان يملي عليّ خيبة ولم أكن لأجيد تدوينها إذ تتراجع حرارة الصّيف ويلوح الخريف حزينا، بعد أيام سيرجع التلاميذ إلى الدّراسة أمّا أنا فسأجد لي حيلة أخرى. أدرس بالمراسلة السّنة التي بقت من أجل إجتياز امتحان شهادة البكالوريا، وردة أصبحت تتهرّب مني، أتّصل فلا تردّ، غدا اليوم الأول للدخول المدرسي وسأتبيّن الأمر "أغدا ألقاك ياخوف فؤادي من غدي"، كان هذا صوت أمّ كلثوم بكلمات "الهادي آدم"، رائعٌ... هذا بالضبط ما أردت أن أقوله "ياخوف فؤادي من غدي"، وكانت ريبة الغد تتمثّل لي وجعا.

في ذلك اليوم الخريفيّ تألّقت الشّمس كما لم تفعل من قبل وفعلت أنا الشّيء ذاته، اتخذت لي مكانا دنيا من الثانوية، منتصف النهار تخرج وردة ترمقني بعين مريبة وتمضي إلى الشّارع الخالي حيث اعتدت أن ألقاها، بي

بعض من السّعادة مازالت تفهم إشاراتي. إلى الشّارع الموعود... لم تعد وردة لي؟ ركبت سيارة الهاشمي ابن عمي، خيانة! كان هذا ثالث جدار يهوي لكنه ينهار داخلي هذه المرة ورغم دويّه الذي يصمّ الآذان إلا أنّ الحياة تتواصل، ويمضي الناس أمامي مبتسمين ويعبث الأطفال بالتراب في كلّ الشّوارع التي أقطعها.

لم أكن المسلوب الوحيد يومها، جلال ابن المحامي أيضا تعرّض إلى الغزو، نزل عدد كبير من شباب الأمن أمام الثانوية بلباسهم المدني وأسلحتهم، وإلتقط أحدهم حبيبته "فاتي" بينما بقي هو يقاوم دموع عينه، كان صغيرا وكسيرا والجميع شاهدٌ كيف أخذ الشّرطيّ الطّويل الفتاة إلى خلف الثانوية، كانت فاتي تلك أجمل فتيات الثانوية، أمّها عاهرة محترفة أمّا هي فعاشقة حدّ الجنون لجلال، الغريب أنه عاد إليها بعد ذلك ونسي الجميع أمر الشرطي، والأغرب أنّ تلك الدوّامة كانت تخلط رؤايا، فاتي كانت صديقة نبيلة وهي بنت شرطيّ وعشيقة آخر، كان رجال الأمن يواجهون الرّصاص بالحبّ والجنس والعنف.

دخلتُ المنزل بلا روح، منذ ألف سنة أبتلع الهزائم ولا أفيق من كسور إلا على صوت أخرى، خيل لي أني أحزن رجل على سطح الأرض وتحتها... تلك التي كانت تلوّن تفاصيل حياتي نفثت حبرا على الشّاشة منتصف الفيلم الرّومانسي ولم يعد الفيلم مشوقا، كم كنت كسيرا... كم كنت وحيدا.

فيما مضى كنتِ تقولين ويدكِ تمسح غبار وجهي أنا معك، ترى أين أنت؟ لم أخرج من البيت وأغرقت نفسي في القراءة والجنون، إلتهمت كلّ الكتب التي بمكتبتنا في الدّين والسياسة والمعمار والكثير من الرّوايات العربية والمترجمة، بعد شهر دخل أبي ومعه "راق"، قال أنه أحضر شخصا يودّ التحدّث إليّ، لم أستسلم ودخلت معه في حوار طويل أنهكه وهو المستعد لإخراج

جنّ ما، رأيت في عينيه تأكّده أني مارد لا أخرج مني إلا بلفيف من الرّقاة، خرج الرّاقي الهمام خائبا ودخل عليّ أب.ي مستجديا:

– لمَ تنعزل ما الذي تريد؟ أنا أبوك أطلب وسيكون لك ماتريد

– أريد أن أزرع ورودا بفيناء المنزل، ولكن لا أريدها أن تنمو بأشواك ولا أريد أن يراها عمي عامر ولا أحد أبنائه

حدّق ب.ي أب.ي مليا ثمّ قام من مكانه، كأنه يريد أن يقول لي أنت مشكلة أكثر منك ابنا، أردت أن أرحم أُبوّته القلقة فقلت أنني أبني نفسي فقط لست مريضا ولا يائسا، إنصرف يتمتم لعلّه كان يدعو الله أو ربما كان يلعن يوم مولدي، قرّرت مساء أن أصفّي حساب.ي مع وردة دون أن أبتلع القرطين المدوّرين، ألحيت في الاتصال بها، هدّدتها وأسمعتها صوتا لم أعرفه فيّ من قبل، كنت وقحا وفجّا وعنيفا فالتقينا في الغد، ليست راغبة في الحديث، سألتني أن أؤمّن لها مكانا نختلي فيه بعيدا عن الهاشمي، ذهبنا إلى بيتنا، قلت لأمّي أنّ أحد الرّقاة سيدخل غرفتي فحبست نفسها بالمطبخ، أب.ي لن يعود قبل عصر هذا الخميس، دخلنا الغرفة أغلقت الباب لتوّي ألتفت حتى إنقضّت عليّ جموحة، أمسكت خاصرتها تأمّلت وجهها الأرجواني وهو ينفلت من ناظري ودفعتها إلى السّرير، قلت في نفسي هذا ما علّمك إيّاه الهاشمي ولم تكوني لتعرفي منه شيئا معي، ألتهمها زبدة وجبنا وشهدا وفاكهة أبا، ناعمة لكنها مزّقتني... دافئة لكنها جمّدت الدّم في عروقي، من أين تعلّمتُ هذا العمل المثير قبحا وروعة؟، أتذكّر الآن دروس أب.ي الحسن التي كانت تجعلني أحتلم، فقه الفراش الايروتيكي الذي عمّر في رأسنا نحن المجاهدون الصّغار دون باقي الأحكام، أنهيتُ اللّعبة قالت لي "أخرجُ الآن لم يعد بيننا شيء"، إستسلمت وتركتها تتصرف بعد أن دفنتُ القرطين

في حقيبتها البيضاء، أمّي ظلّت مرابطة بالمطبخ تنتظر بقهوتها التي لم يطلبها الرّاقي وسألتني لاحقا

- ماكان رأي الرّاقي، عينٌ أليس كذلك؟

- أجل قال أنها عين قريبة رأت أشياء جميلة فسلبتها

- يا لطيف يا ستار

- لا تقلقي فقد تزول قريبا

- إقرأ القرآن وداوم على الصّلاة، ولا تحكِ أمام الآخرين، فمنذ أنجبتك والعين تحيقُ بك وتبعثر خطاك "قل هو الله عليك ياوليدي".

مسكينة أمي المبعثرة، مسكينة وردة، مسكينة خطاي.

-3-

صورتي وأنا أمارس لحظات طويلة من التفكير في سبب الوجود علقت بذهني، ومن جميل ما حصل معي أن تلك الصورة مليئة بالحنين، أشعر دائما بأن سنة أو سنتين فقط من حياتي كانتا جديرتين بالبقاء كأبد، ومن بين كلّ الناس الذين سأمرّ عليهم علق يحي كأهم طفل سرمديّ الطفولة، رغم غضبه وكبره وخطاه وابتعاده واقترابه، رغم أحلامه وكوابيسنا ظلّ يحي يملك سحنة الطّفل.

يوما ما سأعرف لماذا كنت أتخيّل يحي مغادرا، كان ظهره هو المشهد الذي يثري أشواقي اليه، اعتقدت أنه لون مستقل عن الألوان، أنه موسيقى أو عنصر من عناصر الطبيعة، اعتقدت أنه كائن مقدّسٌ التبس عليه الوجود، وما زلت كلما استعدت وجهه سارعت خطاه وهو مغادر المشهد فتحوّل ظهره إلى لوحة تشتهيني.

يحي قامة من الذّهول، صمتٌ يتّسع دون أن يستأذن سمعك، فكرة غامضة تجعلك تبتسم كأبلهٍ، وفضاء يحرّض على الآمان، هكذا أتصوّر خالي يحي الأخرس، منذ ولد وهو منسيٌّ، تقول أمّي أنه شاطر وحاذق، وأعتقد أنا أنه عبقري، فيحي لديه عوالم لا يمكن في كلّ الحالات الولوج إليها، لم يتعلّم أيّ لغة

سوى لغة عينيه، لا أعلم إن كان يسمعني أم أن احساسا آخر تعويضيا يفسّر له كلّ ما أقول، كان خالي يحي يقترب من الأربعين إلا أنّ مظهره لا يوحي بذلك، واتّخذته أنا منفضة لأوجاعي، أحكي له دون أن أتوقّف بينما يدخّن هو بشغف ويهزّ رأسه، في الطّفولة مارست سطوتي في الحيّ باسمه، أيّ شخص يزعجني أستدعي له يحي، بكاء قصير كفيل بادارة معركة في الشّارع، معركة صامتة في إحدى أطرافها، كان قويا ودائم الانتصار، المرّة الوحيدة التي هزم فيها كانت آخر مرّة ألجأ إليه فيها، شجار خفيف مع طفل لا أعرفه، إنتصرت فيه دون إعانة من أحد لأنّ الطّفل كان غريبا عن الحيّ، فجأة يتدخّل شقيقه الضّخم ويبرحني ضربا، يحملني بيد واحدة ويضعني أمام باب البيت، عندما همّ بالانصراف كان خالي يحي يفتح الباب، التقطني كقطعة قماش مبلولة من الأرض... "أأأ...أأأ..." ويشير بيديه متسائلا، ولم أتردّد لحظة في الإنفجار بكاء والصّراخ في ظهر العملاق "يا الرّخيص أرواح ها هو جا نتيجك[14]"، فهِم طرفي المعركة موعدهما والتقيا في سرعة غيمية لم أفهمها إلى اليوم، خالي الصّامت يصرخ صرخة هادرة، يحلّق عاليا ثمّ يسقط أرضا معوّجا، العملاق يغادر ساحة المعركة، إلتقطه بطريقة رياضية جعلت ذراعه تُكسر. ظلّت تلك المعركة راسخة في أذهان الجميع، فإذا أراد أحدهم أن يظهر قوّة شخص يشبهه بالمارد الذي كسر ذراع خال إدريس، وإذا أرادوا أن يصفُوا قوّة صرخة مغبون يشبهونها بصرخة يحي عندما كسر ذراعه المارد.

سكن العار حولي، وخالي الذي صددت به الأعادي أصبح كسيرا؛ لهذا سأقضي الكثير من الوقت هادئا لأتجنّب أية معركة ممكنة، أمّا هو فقد شعر بكثير من الحرج ولم ينجح في دفعه؛ لهذا فقد قلّت زياراته إلى بيتنا، وخلال ذلك لم ينظر إليّ واكتفى بتأمّل الأرض وشرب القهوة والتهام أكثر من سيجارة في

دقائق قليلة.

بوسع يحي أن يمنحني ما أريد من الحكمة والهدوء والمال، وليس بوسعي أن أعرف من أين يحصل على كلّ ذلك، فهم أنّ أوجاعي الصّغيرة عابرة، وفهم أني كنت أحبّ فتاة وفشل حبّي، أخذني معه إلى "العرَب"[15]، لم تكن عرب أهل أمّي بعيدة عن الجلفة كثيرا، بعض الكيلومترات شمال المدينة، هناك سأخضع لأوّل علاج طبيعيّ، كنتُ أتعاطى مع يحي أنواع غريبة من المشروبات التّي إجتهد في تحضيرها، الكمّون يطرد الغازات ويدرّ البول ويفتح الشهية، الاكليل يقوّي الذاكرة، الزّعتر ينشّط الدّورة الدّموية ويقاوم الميكروبات، الزنجبيل يحمي المعدة ويمنح البدن قوة، النعناع يريح البال ويهدئ الاعصاب، لا أثر لرائحة مطبخ أمّي، حوّلني يحي في أسبوع إلى كائن جديد، وجعلتني أعشابه العجيبة نهما للأكل وكثير التبول، أروع ما في الأمر أنّ الامتداد السّهبي كلّه راحة، لم أكن أحتاج إلى مكان مغلق، التبوّل على الهواء الطّلق يجعلني أقرب إلى التاريخ من الحاضر، كنا نفيق باكرا وننام باكرا، لم أسمع صوتي منذ جئت إلى هنا، ورغم أني إعتدت سابقا أن أبذّر لساني في حضور يحي، إلا أني هذه المرّة تحوّلت إلى كائن يحياوي يصغي ويشير.

كان يحي يضع عشرات الأواني المهملة التّي حوّلها إلى مزهريات وحاميات لنبتاته المختلفة، تلك موهبة أخرى لم أكن أعرف عنها شيئا، في المساءات يتضاعف الصّمت في تلك الأرض التي يسمونها "قبب العطايا" [16] وتتقلّص العطايا، أمّا هو فيلغيني تماما عندما يهوي على المائدة الثقيلة بأوراقه وقصبته، يحي تحوّل إلى أهمّ كاتب لوحات على قبور الأهل، كلّما مات أحدهم أهداه لوحة بخطه، كان خطّاطا بارعا، ولقد تعذّبت أنا بموهبته تلك، فقد

أراد أن يصنع منّي فنانا في صغري، حسّن خطي لكنّه لم ينجح في جعلي أحبّ الخط العربـي، أعرف الآن الفرق بين الخطوط والاختلافات، يعجبني الخطّ العربـي بل يسحرني، لكنني لا أفهم ما الذي يفعله خالي الصّامت قسرا بكلّ تلك الخطوط التي يمارسها منذ سنوات دون ملل. كتب بخطّ جميل أسفل المقامات التي اتّخذها لمجموعة من النباتات حول المنزل الطّوبيّ القديم أسماءها، أحاط تلك النبتات بجدار صغير يرتفع بأقلّ من عشر سنتيمترات عن الأرض، إختار لكلّ نبتة ما يلائمها من خط، الشّيح بالرّقعة، الرّمث بالثلث، الرتم بالنسخ، الحلفاء بالفارسي، المثنان بالدّيواني، وتشترك الكثير من النباتات في الخطوط وليس هناك تقسيم واضح لذلك التّوزيع سوى قياس يحي وفلسفته في الخطّ والنبات. كيف استطاع أن ينقل كلّ تلك النباتات إلى هنا؟ لا أعرف إن كان وحيدا أم أنّ له أتباع وشركاء في هذه العمليات الكبيرة. أية لغة تحكي الأشجار لتفهمه ويفهمها؟.

بعد انقضاء الأسبوع أردت أن أغارد لكنّه ألحّ أن أبقى معه إلى الغد، فعلت مجبرا وكانت تلك اللّيلة أطول مما أعتقدت، توقّف الزّمن فجأة ولم يعد يريد أن يتزحزح في قبب العطايا، لا أحد بامكانه دفع السّاعة الغائبة في هذه الجهة المنسية من الأرض، أتحامل على نفسي لكي لا أجنّ، أنفخُ كلّ نقاط ثاني أوكسيد الكربون بعنف وأحصل على القليل من الأكسجين، نباتات يحي تتحوّل إلى وحوش تتطاول لتلتهم كلّ الهواء وتقتلنا، أتصوّر يحي نبتة منهم، في آخر الصّف النباتي كان هناك مقام مجهّز دون نبتة، جدار صغير وتربة سوداء وكتابة بخطّ نسخ رائع "البروَق" ربّما كان ذلك فضاء خالي عندما يتحوّل إلى نبتة، فأنا لا أصدّق أنّ يحي يعيش منذ سنوات دون صديق، لا بدّ وأنّ له أهل ورفاق غيرنا، أناس يحكي لغتهم وإلا كان قد انفجر، فأنا أشارف على الجنون بعد أيّام قليلة

فقط من الصّمت.

شخير يحي لا يوحي بأنّه الرّجل الصّامت نهارا، ليس هناك أيّ تبرير للسانه يجعله يصمت كلّ هذا الزّمن، إنّه شخير هادر، وأنا أصارع لأنام دون جدوى، لا شيء يتحرّك سوى نباتات يحي التي تزحف إلى عنقي وشخيره الذّي تحوّل إلى معزوفة من أجل تناسل العذاب.

رائحة "العرب" تغلّف ذاكرة المدينة بالنسيان الشّهي في البداية، في المنتصف تجعل المدينة رهانا للعذاب، في النهاية تصبح الحلم العاجل؛ لهذا لم أعد أُفكر بشيء سوى العودة إليها، صحيح أنّها أكثر الفضاءات احتفاء بالبرودة، الأقدر على تعليب البرد في أشكال انسيابية مظهرها دافئ ولونها متّقد، إنّها المدينة الأكثر معرفة بخطايا، لا أحسب أنّ أيّ شوارع ستكون مستعدّة لمنح تلك الخطى مساحة كالتي منحتتيها.

أسمعُ وقع أقدام ولا أسمع صوت أحد، في مخيلتي التي تتّسع كلّما ابتعدتُ عني وعن الناس، أحاول المفاضلة بين حشد من النباتات التي تقترب نهمة إليّ بينما أصرخ عاليا ويحي يواصل شخيره، وبين عصابة من سارقي المواشي الذين يصدمون بعدم وجود أيّ رأس ماشية، إذن سنتحوّل أنا وخالي إلى كبشين كسيرين في يد العصابة، أيّهما أفضل لي في هذه اللّيلة المسكونة بأرواح أعشاب ونباتات يحي المأسورة في أحواض من إسمنت. ليس لمخيلتي أن تتّسع أكثر طالما يفتح الباب بضربة واحدة يفيق اثرها يحي وكأنّه يسمعها، فجأة اجتاحنا الضّوء، مجموعة من الرّجال يرتدون قشابيات محلية ويحملون الأسلحة، من اللّيل القاتل والصّمت المربك إلى دوّامة من النّور المرعب، انخرطتُ مجدّدا في حالة غائمة لا أفهم ما الذي يدور حولي، أيّ حوار أسمعه الآن وأية أسئلة،

ماذا أقول؟ ومع من أتكلّم؟ يحي بدا هو الآخر مُلكا للضياع، الحقيقة أنه قسّم قلبي، كنت أملك لسانا يمارس إلى جانب الكذب والإفتراء الهذيان أو يدافع عني، هو لم يجد ما يقول بينما كانت أعقاب الرّشاشات والبنادق الآلية تتداول على رأسه كأنه مهبط لها. "اللسان ما فيه عظم"[17] لهذا لا يتعب، أمّا لساني فقد نبت فيه عظم لهذا لا أجيب لا عني ولا عن يحي، تأمّلوني مليا "أنت وش راك تقوّد مع هذا السيّد؟" أردت أن أخبرهم بأني لا أقوّد معه فهو خالي، لكنّهم انصرفوا عنّي وعادوا إليه، لم أفهم لمَ إلتزم خالي صمتا مضاعفا؟ لم يشر إليهم كما اعتاد بأدبه الجم، لم يفهمهم بأنه أخرس ولكنهم واصلوا تأنيبه ودفعه، أخرجوه وتحلّقوا حوله، أحدهم قال له "ما كفاوكش النسا جايب الطّفل تلعب بيه؟" ارتفعت وتيرة الغضب وأنا أريد أن أتبيّن فقط طبيعة المجموعة، إن كانوا من أنصار أبي الحسن فأنا أملك خطابهم، وإن كانوا من أنصار عبد الرحمن فأنا أعرف سرّهم، من هم لأعرف لغتهم؟ صرت مثل يحي بلا لسان، تطوّر أسلوب المجهولين ووصل إلى ذروته وأنا جافّ بلا رأي ولا حركة، كان يحي مثل عمود مضيء تعبث به أشباح الظلام، يسقط ويكابر ليقف فيأخذ ركلة من هنا ولكمة من هناك وعقب سلاح ليعود إلى الأرض، لا أعرف لمَ يصرّ على الوقوف، انتظرت أن أسمع أحدهم يصرخ به "يحي موت واقف" على غرار الفيلم الثوري الجزائري، لا أحد فعل حتّى أنا ابتلعت لساني وهضمته بعظمه وأكاد أطرحه... يحي لا يفهم...! يحي يفهم كلّ ما قالوه. فجأة توقّف الجميع ولم يعد خالي يتحرّك، إلتفتوا إليّ، سألوني ماذا أفعل معه ولم أتحصّل على أية لكمة أو ركلة، أجبت مرتبكا وأنا أرفع يدي لأتحاشى ضربة ما "أنا... خالي يحي، وأسكن في العطلة... نأتي إلى البحيرة[18]، ذهبت"، بعد أن سمعوا الطّلاسم التي نطقت بها أعادوا صياغة سؤالهم، من هذا؟ وهم يشيرون إلى خالي، لم يعيدوا السؤال،

أخذوني معهم وأنا أطلب أمرا واحدا، فقط لو أعرف إلى من ينتمي هؤلاء الوحوش؟

بعد مسافة قصيرة وجدت نفسي في حصن "الحرس البلدي"، تركني الوحوش هناك وطلبوا من الحرس البلدي أن يرسلوني في الصّباح إلى بيتنا، شعرت أنني نجوت ولكنني تأكدت أنّهم سيعودون لخالي، بكيت سرّا بلا دموع لدى الحرس البلدي، اكتشف أضعفهم أني أبكي بلا دموع فطلب أن أفعل ذلك علنا، إعتبر أنه هنا لحمايتي وكنت أرى أنه لا يقوى على حماية نفسه، على العموم منحني تشجيعه فرصة لأعلي صوت شهيقي، عندما التفّ حولي أعوان الحرس البلدي تمكنت من الحديث، تجاوزت الرّعب "خالي قتله هؤلاء وتركوه مرميا أمام البيت في قبب العطايا".

استعاد مستضيفيّ قدرتهم على الحركة مع أوّل خيوط النور، وذهبنا إلى البيت لنقف على جثة خالي يحي، لم أجد الجثة هناك وليس داخل الدار!! بدت لي أعشاب ونباتات يحي حزينة وخضرتها تتحوّل إلى حمرة.

أين يحي؟ لا جسد ولا صوت في مقامه؟

تصلّبت شراييني، غبت عني فيّ... يحي لم يعد هنا، وفي ذاكرتي خطوط ونباتات تتراقص إحتفاء بقامته، في ذاكرتي صرخة منه تتمدّد... كنت أجري نحو الطّريق دون أن أشعر بصوت الحرس الذين وقفوا في صف واحد عاجزين واكتفوا بنداء دون إسم، لم يعد لي إسم، لم أعرف المكان الذي أقصده ولا أين تأخذني الأرض التي بدت متداخلة الألوان، بعض السنابل الكسيرة، حصى وحجر وتراب يتلوّن في دعة كاملة كأنّ القتلة لا يدوسونه، جريت وجرى

العقل في الاتجاه الآخر، أغنيات وصرخات وصور، ضحكات وأشعار وقرآن... هل مات خالي يحي دون أيّ سبب واضح؟، كأنّ الوحدة والعذاب الذين عاشهما لا يشفعان له ليحصل على نهاية أبهى.

غمّني البكاء وامتلأ صدري على مشارف المدينة الباردة، توقّفت أتأمّل الموت الذي يقف في الجهة المقابلة، ألهث وأشعر ببعض النّدم، تلك اللّحظة دفعتني إلى التّمسك بالحياة، شعرت أني أفرطت في الغضب والتعاسة، كان يكفي أن أبكي كيحي عندما مات جدّي، إقترب من نعشه وقف قليلا، مرّر يده النقية على وجه والده، انحنى وقبّل جبينه وأتاح لعينيه أن تقذفان دمعات لامعة، هذا كلّ شيء، وانصرف بعدها إلى حياته بينما ظلّت أمّي تتذكّره إلى اليوم رغم أن تاريخه رماديّ، كان سكيرا يهرب إلى الخمر، وأصبح من فرط إدمانه أشهر سكيري المدينة إلى غاية موته المفاجئ في قبب العطايا في آخر موسم حصاد لا تحصد فيه الأرواح.

كان جدّي مصدوما من صمت يحي؛ لهذا فقد كان بينهما حبٌّ وشفقة يتبادلانهما سرّا ودون مواجهة، أمّي ما تزال تصرّ أن شقيقها فقد سمعه لدى ولادته بسبب الضّغط الدّموي، لست أعرف من أين تحصل أمّي على تفاسيرها للأمور، حتّى أنا فسّرتني صريعا للعين.

كنت أشبه أمّي في الحزن وأشبه أبـي في الإصرار، فهل سأشبه جدّي في الموت؟

تغلّف غياب يحي بالصّمت، حاول أبـي أن يجد طريقا إلى حقيقة غيابه، لكنّهم نصحوه أن يلتزم الصّمت ويتجنّب المشاكل فعاد يصبّر أمّي، ثمّ

تمطّطت الأيام وتقلّص وقع غيابه. أمّا أنا فقد إجتاحني صمت شفاف، لم أعد أسمع أكثر من صوت الصدفات التي كنا نصعها في آذاننا صغارا لنسمع صوت البحر الذي لا نعرفه، لفّني الصّمت بكثير من الإغراء ومنحني وقتا لأعرف أن الإنسان يراوح موقعين، القاتل أو المقتول، قرّرت أن أكون القتيل والقاتل وأن أنأى عن الجميع، في الليل، في المرحاض، في الشارع، في عمقي، وفي كلّ الحالات كنت أبكي بعنف وأشعر بالخوف، ولكنّني أتمسّك بالحياة، صوت ما داخلي كان يقول لي "قل أنا أريد أن أعيش" كنت أقول "قليل من الحياة... قليل من الحياة".

أحصل على قطع الكيف رغم فقري المدقع، لم يكن الأمر عسيرا، في نهاية الشارع التقطتني يد أخبرها، الأمن يفتشون جيوبي، قطعة كيف، قطعتان، ماصّة[19]، وكبريت، هزّني أحدهم وعنّفني "يا وليد يماك يا واحد الفرخ تتكيّف" لم أجبه، لكنه سريعا غيّر ملامحه، ألقى بالقطعتين والماصّة والكبريت في جيبه الأزرق، ركلني بحذائه الخشن "امشي طير"، وطرت سريعا رغم الألم الذي أسفل ظهري.

كنت مجهّزا لابتلاع القطعتين لو رأيتهم، وكنت على استعداد للكذب وادعاء عدم معرفة الجهة التي موّنتني بالكيف، لكنهم لم يهتموا لأمري وانشغل زعيمهم بالقطعتين اللّتين أغريتاه.

-4-

استغرق تأملي لوالديّ ولجميع الكبار كلّ طفولتي، لم يرضني شكلهم وإن تمنيّت أحيانا أن أكون كبيرا، أودعت الجميع في وضع طفوليّ ليصلح لي التعامل معهم، في النهاية عجزت أن أفهم كيف كانوا أطفالا ثمّ تحوّلوا إلى كبار، وعجزت أن أفهم كيف يمكنهم أن يتركوا الطّفولة ليسكنوا هاته الأجساد التي تتعرّقُ وتتدافعُ وتظلم بعضها بعضا.

حتى أنا وصلت إلى جسدي، ألا يوجد علاج لكلّ هذا، ألا يمكن أن نحقّقَ قليلا من الاتزان إذا التفتنا إلى الطّفل فينا؟ صرت أبحث عن دواء للوجود.

إنقضى زمن وردة، وزمن يحي وزمني أيضا، انقضى زمن الحياة قبل أن تبدأ.

أُغرق نفسي في حياة عبثية، سارتر وجان جينيه وأونيسكو وبيكيت أصبحوا أصدقاء لي، طلعوا فجأة كأنّ أحدهم أراد أن يقرّر لي ما سأقرأ، اقتنيت تلك الكتب مجتمعة لدى بائع على الرّصيف، صاحب تلك الكتب إسمه "مفتاح عباسي" وكلّها أقتنيت مطلع الثمانينات حسب ما كتب في أوّل صفحاتها. البلاد

ترمي بـي إلى العبثية قسرا، كلّ عناصر الحياة لم تعد تشبه الحياة، فجأة أكتشف عصام، وأخيرا ها هو عصام صديقي القديم الجديد يوفّر لي مساحة واسعة من أجل الضّياع الإرادي، أضاف إليّ الشّرب والمبيت خارج البيت، لم أجتز امتحان البكالوريا فيما نجحت وردة ونجح الهاشمي ابن عمّي... لا بد وأنني سخرية الجميع.

في الثامنة عشر من عمري أشربُ وأُدخّنُ وأُكيّف رأسي، لا يعرف والدي سوى فصل التدخين من كلّ الحكاية.

أتعبتني الحكاية، أتعبتُني حاكيا ومحكيا.

بعد هذا الألم لن أعود إلى إدريس الذي كنته، مرغم على المواصلة... أُواصل.

لم يتغيّر شيئ، الرّصاص مازال إيقاعا وحيدا لليالي المدينة، جارنا عبد الرحمن مازال ضابطا، أبو الحسن إختفى منذ شهرين تقريبا، لعلّه سيعود تاجرا كبيرا في الذّهب أو الخضار، يحي لم يعد موجودا إلا في ذاكرتي التّي تبكيه كلّما أردت تشتيتها بالكحول أو الكيف، اثنان يشربان نخب يحي، أنا في فقدانه العظيم، وجدّي الذي لم يحتمل أن يكون ابنه الوحيد أخرسا، كان جدّي رجلا محترما رغم أنّ الجميع لا يتوانون في اطلاق اسم "مومن الخبيطة"[20] عليه، كنت أتحرّج في صغري عندما يسألني البعض من أكون ويهمسون "هذا جدو مومن الخبيطة"، أما هو فقد حافظ على نظراته الحادة وتحدّيه للجميع حتّى في ترنّحه اللّيلي، عندما يعود من سهراته كثيرا ما أبدع ونحن نتحلّق حوله، كنا مجموعة كبيرة من الأحفاد والأمهات ليس فيهم من الذّكور إلا أنا وجدّي ويحي،

نسلُ جدّي كلّه أنثوي لهذا فقد مات وهو سعيد لأني أنتمي إليه، وكانت سعادته أكبر عندما كنت أحدّثه، لعلّه أراد تعويض صمت يحي بهذري المتواصل، فلم يسمح لأحد أن يسكتني، مرّة تطاولت ودلوت بدلوي في حديث الكبار، بادر أحدهم إلى إسكاتي فانفجر في وجهه، كانت أمّي تقول أنّ والدها سيفسدني، لكنه مات قبل أن يفعل وفسدت وحدي، ما زلت أتذكّر كيف منعني من مصافحة رفاقه، طالما اعتبرهم أسوأ وأرذل من مصافحة حفيده المقدّس، جدّي لم يعد موجودا، ويحي لا مكان له إلا في يوميات أمّي التي اتخذت لها فصلا جديدا من الحزن السرّي اليومي الذي بدا لي أقرب إلى اللّذة بالنسبة لها، تتحوّل إلى مغنية تطلق مواويلها كلّما تسلّل اللّيل إلى الحيّ، وفي اللّيل يصبحُ الصّمت دينا مشتركا، أمّي قاطعت شقيقاتها الثلاث لأنهنّ لم يفرطن في حزنهن على خالي يحي، وهنّ لم يبادرن بالنزول عند رغبتها والإصغاء للحزن. الخطى كلّها مشبوهة والشّك منطق كلّ الكائنات والأشياء، بعضي خائف وبعضي بوهيمي منخرطٌ تماما في اللّحظة العبثية.

ربّما ينبغي أن أوغل أكثر في تيهي الذي لا يتحسّسه أحد مثلي، ربّما من العبقرية أن أتطرّف في هذا التيه لأصل إلى اليقين فيه، صور يحي تتكثّف وعلاماته تقسو عليّ، أصبحت أخشى الحروف العربية التي تضعني في رقصاتها المختلفة بين فكّي ذكراه، لا أطيق ذكر الفضاءات التي تتعلّق بيحي، حتّى النباتات التي قد تصادفني أتجاهلها. أصعب من فقدان شخص ما محاصرته لنا وامتلاكه كلّ الملاجئ، الصّمت كان ملجئي الذي لا يمكن أن يُغفل سيده، ويحي كان أمير السّكات لهذا فأنا أسيره، كلّما صمتت الدّنيا نزل بقامته، وكلّما صخبت بأخبارها وفجائعها وقنابلها تلاشيت أنا، وتلاشى الجميع.

اختطفوا عبد الرحمن

زوجته الطّبيبة ترقد بالمستشفى، أمّي معها ترعاها وتخفّف عنها محنتها، الحيّ محاصر، دخلوا كلّ المنازل دون جدوى، لا أثر للرّجل ولا لوطنيته، لاحقا سوف يحكون بطولة المختطفين لا فجيعة وردية... اعتاد أن يرافق زوجته نحو المستشفى، في الحكاية المتداولة يقولون: "توقّفت سيارة نزل منها وحش مشى خلف عبد الرّحمن... انتبهت وردية بالكاد أخبرته، التفتَ، يده إلى السّلاح لا سلاح اليوم، (عدو الرحمن) صاح الوحش، أُهربي وردية، قال عبد الرحمن، لم تهرب بل هجمت على الوحش بحقيبتها، نزل بقية الوحوش فيما ضرب العملاق وردية لتسقط مغشيا عليها"، في النهاية لم يجد أحد من الشّاهد الذي نقل هذه التفاصيل؟ حتى الشّرطة لن تعثر على صاحب الرّواية الأولى، فقط المتن دون راوٍ ولا سند.

أشرب أكثر... عبد الرحمن لا يحمل سلاحه في المسجد والمستشفى، أشرب أيضا... وردية كانت أُمّا رؤوما لطالما نمت على حجرها وهي تغنّي لي ابنا للجيران، عبد الرحمن يا عبد الرحمن... اعتقدت مرة أنني أكرهه، لكنني أكتشف الآن كم أحبني وأحببته، آتي على القارورة كلّها، أُخرى فالفجيعة أكبر...

غرق بيتنا في الحزن لغياب عبد الرحمن، كما لم يفعل في غياب يحي، ربّما لا أحد يشعر بغياب يحي لأنه كان صامتا، ربّما لأنه لا أحد شهد نهايته، كان ينقصه مشهد حركيّ كالذي حصل لعبد الرجمن، أبي كان يبكيه ذات فجر عقب الصّلاة، سمعته يدعو لجارنا بالنجاة ويقول "يابرنوس المساكين يا عبد الجنة"، يناسبني كلّ هذا الحزن ويسمح لي بالبكاء، بالتباكي ربّما أستطيع أن أفكّ عقدة الصّمت التي لازمت عيني منذ الصّغر، ألهمني الجوّ رغبة في السّفر أو

لعلّها رغبة في الهروب، أحسست بالبرد، أردتُ لو أنام وأتغطّى جيدا وأنسى نفسي وأنسى العالم، عادت وردية وحيدة، ولم يعد بعد عبد الرحمن، رفضت النّزول عندنا وطلبت منّي أُمّي أن أبقى معها، البقاء مع وردية يعني التخلّي عن عصام، لم أجد بدا من الموافقة.

أمضيت شهرا لديها. حكت لي أجزاء الأجزاء عن عبد الرحمن، عن زواجهما أثناء دراستهما بالعاصمة، عن رفضه الزّواج من غيرها رغم سعيها لذلك، اللّيل أمضيه أُصغي لحكاياها ونحيبها، والنّهار مع عصام في إحدى سيارات والده المقعد، والد عصام أحد الذين لا يحبّ أب.ي، وما أقل ما يحقد أو يكره أحدا، كان رئيس بلديتنا قبل أن يصبح مقاولا وتاجرا، كنت أشعر أنّ أب.ي يغار من الناجحين فيحقد على نجاحاتهم؛ لهذا تحفّظ دائما على صداقتي معه، أصبحت حالة وردية أسوأ، أحيانا كانت تناديني عبدو، عندما توقظني في الصّباح تطلب أن أستحم وأن أفطر بزيت الزّيتون والتين كما اعتاد عبد الرّحمن، بدأت تتأكّد أنه لن يعود أبدا.

في ذلك الصّباح لم أجد تينا ولا زيت زيتون ولا وردية، نزلتُ إلى بيتنا فلم تكن هناك، إرتعدت خوفا، إفتقدتها ورحت أستجديها الرّجوع، أُمّي أقامت مندوحة على حبيبتها، تبعثرتُ وأنا المشتّت أصلا، أخرج من البيت بلا اتجاه، ألفُ مكان يطلبني، سأهرب من العدم، سأذهب إلى الشّرطة، ربّما ينبغي أن أشدّ عقلي بقطعة جيدة من الصّابونة والطبيسله[21] أو البيرة، أُشعل سيجارة أرفع رأسي فإذا بوردية تمشي كما كانت سالفا هالة وثقة، خطى من الحكمة ونظرات حادة، الآن أتمثّل فيها ضابطة تربّت لدى ضابط، كيف كانت تعالج الآخرين؟ حتما تكون قد عالجت نفسها، يتصادم داخلي إثنان، أنا المسؤول بقليل من

"الرّحمانية" التي سرّبتها لي، وأنا الخائف بقليل من الطّفولة التي أحسستها عندها دائما، أين كنتِ؟ سؤال وجيه، ولكن أصرخ غاضبا كرجل لها، أم أبكي كطفل يشتاق أُمّه؟ أحسّتْ بقلقي، تقدّمت منّي مبتسمة وكانت تلك المرّة الأولى التي تبتسم فيها منذ غياب زوجها.

"سأعود إلى عملي، غدا سأرجع إلى المستشفى" قالت وهي تنفرطُ من شرنقة الضّياع، "أنا سعيد لأجلك" قلت وأنا في الدّرك الأسفل من التيه، قالت وردية "أفكّر لو أنّ عبد الرحمن يرقبني الآن سيتجلّد حتما، قوّتي من قوّته"، ثم فجأة امّحت ابتسامتها، طغى حضور عبد الرحمن الغائب، دخلنا بيتها تمدّدت على الأريكة كأنّها ستبكي ولكنها تتراجع، بدأت أعود من ضياعي، إنتابني شعور بأني أقوى، ها أنذا أسند وردية في غياب زوجها.

عادت الزّوجة التي يذبحها اختطاف زوجها من وجعها، وما أزال أقيم داخل اللاّجدوى أسكن وجعا، مسخا أو يسكنني؟ إرادتها، قوّتها، إخلاصها، إيمانها برسالتها في الحياة، كلّ ذلك كان يدوّي داخلي كدويّ القنبلة التي إنفجرت بمقهى السّاحة الكبرى وسط المدينة منذ أيام، مات وجُرحَ العشرات، كنت أعرف "كمال" المصوّر الجوال الذي قضى مبتسما، أنا متأكّدٌ أنه كان يبتسم لدى انفجار القنبلة وتناثر الأشلاء، دويٌّ داخلي... ماذا تريد؟ كلُّ أيامك تتشابهُ وتتنافر، أخيبة تسعى إليها وقد أصبتَ كلّ الخيبات؟ من أنت في معيار الألم أمام وردية التي تستيقظ بلا منبه سوى قوّتها، حبها لزوجها المغدورة فيه؟ غرقتُ في الأسئلة وغرقت وردية في العمل، تخرج باكرا بعد أن تحضّر لي الفطور وتعود مساء في سيارة الإسعاف منهكة، تعود تصلّي وتقرأ القرآن، أردتُ أن أجد لي سببا لأكون مثلها، يحي يرقبني الآن، فهل بوسعي أن أتحرّر من رغبتي الدّائمة في السّقوط؟

إنها جبل إني بخار.

كان والد أبي الحسن يزورنا باستمرا في بيت وردية، كثيرا ما وقف كأنّه يشعر بالذّنب في ضياع عبد الرحمن، ومنحته هي ابتسامة عريضة فيعود سعيدا، تحوّل محّاد القهواجي من شخص كثير الحركة إلى شيخ يطلّ على النهاية شاخصا، ابنه كان غريبا وخرج تماما من صفة "حشاوش بن القهواجي" بينما يرفض والده الخروج من صفة القهواجي، عندما يتحدّث عن جدّي يؤكد لي أنّ سبب موته بيعه للمقهى، لا أعرف مدى صدق تصوّره ولكنني لا أنفيه تماما، جدّي باع المقهى لشخص أميٍّ يدعى عامر مثل عمّي، الرّجل القادم من الفراغ تحوّل فجأة إلى أحد أغنياء المدينة، نهض من العدم ليصبح الحاج عامر صاحب الأفضال وأحد أعيان المدينة، أبي يسمّي هؤلاء أغنياء الأزمة ويقول لي أنّهم سيتكاثرون في النهاية وسيدفعون البلاد إلى التفاهة، لم يتصوّر أحد لا جدّي، ولا محّاد القهواجي، ولا أنا، ولا حتّى عامر الذي اشترى مقهى جدّي أن يتمّ هدم ذلك المعلم، في مساء حزين امّحى مقهى جدّي ولم يعد محّاد القهواجي ولا جدّي ولا الكثير من كبار المدينة يجدون فضاء للجلوس وتناول القهوة في فناجين الفرفوري والماء في أواني الحديد أو القنونة[22]، لا فرصة لهم للتفنّن في التّعامل مع كلّ مشروب وتوزيع وقت حياته بعدل يرضيه. أيمكن أن يحلّ الموت في حياة أشخاص كهؤلاء؟ كيف ومن أين التحق بنا هذا الخراب؟ هكذا كان الناس يتساءلون ويضربون يدا بيد في ختام كلّ مشهد عبثيّ أو دمويّ.

يقترب رمضان يقترب ألم ما؟

وجدوا رأس عبد الرحمن عند مدخل السّوق المغطاة بجانب رأس شخص ثان اسمه مفتاح عباسي، قالوا أنه أستاذ فلسفة، وجدوا رأس عبد الرحمن ولا أثر

لجثّتهِ... مثّلوا به. إنهارت وردية وانهرتُ أنا من أسئلتي ومن إنهيارها، شيّعوا الرّأسَ وحيدا بلا جسدٍ وعزّوني كابن له، مع فارق أنّ دموعي لم تنطلق أبدا رغم إلحاحي في طلبها، في اليوم التّالي موكب من الرّسميين زار منزل وردية؛ قلّدوها وساماً وعلّقوا على شارعنا اسم عبد الرحمن شهيد الواجب الوطني، وكتبوا تحت اسمه "اغتالته أيادي الغدر" ولم يكتبوا اليوم الذي أغتيل فيه، لاحقا قالت لي وردية إنه لا يحتاج إلى يوم ينهيه، إنه حيّ داخلي.

لم تتأزّم كثيراً هذه المرّة أفاقت سريعاً، كنت أخشى أن تنهار بالسّرعة التي أفاقت بها، تعملُ كلّ يومٍ، تقاوم الذّكريات الحارقة وتتمعّن في جَمَالِ الذي بينها وبين الشّهيد، علّقت صورة لهما قبل الزّواج بغرفة الاستقبال، كانا يافعين، جميلين في ضمّة لا تليق إلا بجلال الحبّ الذي بينهما، بجلال رجل شهم كعبد الرحمن.

رمضان أبهى من كلّ مرّة، على مائدة الإفطار تتأمّلني وردية وأصمت

- ستبدأُ تحضير البكالوريا

- لم أسجّل لهذه السنة

- عبد الرّحمن سجلك

عبد الرّحمن مجدّدا لم يترك لي شيئاً وترك لي كلّ شيء، أكبُرُ هنا بأسرع ممّا أطيق، أعرف تماما أنّني على خطإ عندما أتعاطى المخدرات سرّا وأدخّن علنا وأشرب الخمر أحيانا، أعرف أنّ وردة التي ستصير زوجة ابن عمّي كانت لي على فراش خطأ، أعرف أني سببتُ شيخ الكتاب، وكدتُ أحقد على عبد

الرحمن، وربّما لولاه لكنتُ قاتله، أعرف أني لم أنقذ يحي الذي ظلّ يحميني، أعرف كم أنا مدنَّسٌ. الآن أعرف تماما أيّ مسْخٍ كنت تحتملين.

"ستنجح هذه المرة" قالت وردية وهي تشدُّ يدي، أردت أن أعدها بشيءٍ؛ لا شيء، أردت أن أفعل، أن أقول شيئاً، لا شيء، أصابتني برودة ورهبة، صَغُرْتُ، أبحث عن عصامٍ، عن خطيئةٍ، عن دموعي فلا أجد عينا، أحدهم سيصرخ داخلي، أتأمّلورديَّة ممتلئة الوجه رغم آثار الوجع والفقد امرأة تجاوزت الأربعين بكلّ هذه الأنوثة أيّ كنز كنتِ لعبد الرحمن؟ أعود إلى إدريس الضّياع... تلوح لي عين وردية كم أنا يافع وقادرٌ، عيني وعين البلاد تقول لي كم أنا هرم وعفنٌ.

"لن تبدأ التحضير كُلْ الآن فحسب"

كلّ هذا الحبّ كلّ هذا الخراب

ربّما ينبغي أن أنجح إكراماً لذكرى عبد الرّحمن ومن أجل فرحٍ مرجوٍّ لوردية، أردتُ أن أهمس لها بشيء يبعث فيها أملاً، أو يسعدها بـي حين قُرع الباب، إنزلق قلبـي منّي كنتُ على أهبة الخوف، قمتُ مذعورا أو ربّما رجلا يحمي امرأة مات زوجها، موقف يحتاج عبد الرحمن، كانت أقلَّ إرتباكا بادرتُ بالسّؤال "وشكون" لم أسمع جوابا، أذني كانت جلبة وصفيراً، هي ابتسمت واندفعت إلى الباب، أيُّ سلوكٍ تسلكُ؟ أأنا خارج المكان أم هي تستشرف الطّارقين؟ فتحتْ الباب، عرفت الرّجُلَ لكنني لم أقتنع بأوهامي. لو أسألُ الآن من أكون فأقسم أنني لا أعرف، هل سلّم عليَّ؟ يجلس على الأريكة، ماذا أكون قد قلتُ لهُ ماذا يكون قد قال لي؟ يعانق ورديَّة، أين التقينا آخر مرّة ومتى؟ يبكيان معا، من أكون

هنا ماذا أفعل؟ خرجت مستسلماً لدَوختي، هل كان مفعول مخدّرٍ أم انكفاءةُ عقلٍ يعاني من ألف تيه؟ أقصدُ عصاما فلا أجده، أصبحت لي مع وردية حياة لا تحتمل غيرَ ذكرى عبد الرحمن وربّما لم أكن سوى معجبا أو تابعا أو مريدا في خير صفة كما سأصبح مريدا فاشلا لكِ، ضعت في شوارع الجلفة الباردة جدّاً، هل جرّبتي برد الجلفة؟ هل جرّبتي دفء أهلها الشّعراء؟ لا تحضنني أم الرّبيب... أمشي بلا وجهة، أجدني أمام حديقة الحرية وسط المدينة، لم تعد الحديقة تستهوي أحدا والدّخول إليها في هذا الوقت أشبه بالجنون، أتسمّر أمام أحد مداخلها، لست شجاعا بالقدر الذي أفتحها ثمّ أنا لم أحلم يوما بأن أكون فاتحا إلا عندما تعرّفت عليكِ مدينة حزينة، تعبت من المشي، أعود الآن إلى بيتنا بعد أشهر من التّأمل في وجع وردية وارتدائه، غرفتي تفوح برائحة الغربة، من أين أبدأ الحديث معها؟ للأماكن كالنساء مداخل فأيّ مدخل يناسب غرفتي؟ أبدأ من ذكرى وردة... هنا كانت تتأوّه وتتشبث بـي فعلا نزقاً، هنا قلّدتني الخطيئة ولا أشعر أنّ فعلي كان خطيئة، أبدأ من الهروب... من هنا قرأت الكتب التكفيرية وصلّيت وسمعت الأشرطة المميتة، أبدأ من الآن... أغيّر إتجاهها، غرفة بديكور أبدي، أبعثرها شخوصا وحالات على المسرح، السّرير العتيق موت، المكتب محطّة مجهولة، الكتب بلية مقتدرة، الكرسيّ مهزوم من الزّمن القادم، الباب منتهى أو يقين، والرّفوف أحرّكها فتئز موسيقى ترافق المشهد العبثي. نمت في غرفتي التي أخرجتها وإنصاعت لجلالي، هذا السّلوك سيصبحُ ديدني في تطويع الأماكن.

حتى الصّباح لم تسأل عنّي وردية، الرّجل الذي أدركته ينصرف أوصاني بها خيراً، هذا كلام لا يروق لي، غادر شقيق وردية الوحيد الذي يعمل ويقيم بفرنسا.

إقترب وقت الفطور سألت عني ورديَّة.

محّاد القهواجي أسلم روحه ليلة السابع والعشرين، لم يعثروا على ابنه حشاوش أبو الحسن، وتكفّل أهل الحيّ بجنازته، وجدوا فمه مملوءا بالبن، كان عاجزا خلال الأسبوع الأخير عن تحضير القهوة كما يشتهي، الشّيوخ ومدمنو قهوته شعروا باحباط كبير، ووزّعت في جنازته كلّ أصناف القهوة، تبرّعت كلّ بيوت الحيّ بما أوتيت من قهوة، كان يوم دفنه معبّقا بالقهوة التي حاصرت بلونها ورائحتها كلّ مداخل الحيّ، ليت أبا الحسن حضر ذلك الاحتفاء الكبير بوالده، لقد توّجه الجميع امبراطورا على القهوة التي أبدع فيها طوال حياته، إلتحق القهواجيّ بجدّي ولكلّ نهمه، ولكنّهما ماتا بنفس الطّريقة لا فرق بين المعلّم والخادم، بين القهواجيّ محضّر القهوة وصاحبها، تذكّرت وأنا أتابع الاحتفاء الوحيد بالموت منذ سنوات الندرة التي عشناها أواخر الثمانينات، كان الجميع يتعايشون معها بشكل أو بآخر، محّاد القهواجي مزج الحمّص بالبنّ وحمّصهما، وحضّر بهما القهوة لهذا بقي مقهى جدّي الوحيد الذي يقاوم النّدرة ويشبع حاجة المدمنين على الفرارة وأخواتها.

حضر العزاء قاتلهما معا، الرّجل الذي قوّض مسرح جدّي والقهواجي وحرم الجماهير من متعتهم، بدا أكبر حجما وأوسع ابتسامة بينما كان الجميع يتذكّرون القهواجي ويعبرون إلى جدّي دون أن يغفلوا حشاوش بن القهواجي. اختلف الخوانجية مع المؤذن الأعور وباقي الشّيوخ، طلب الناس أن يقرأ القرآن ورفض أصحاب ابن الفقيد ذلك لأن لا أصل له، ولا فائدة تُرجى من قراءة القرآن على ميت انقطع عمله، في النهاية خضع الشّباب المتحمّسون وتحلّقوا لكنهم لم يقرؤوا القرآن، كنت أعرف المتن الذي يتلُونه بصوت جماعي، كأنّهم أرادوا

للقهواجي أن يحفظ "الرّحبيّة"[23] متن المواريث، وهو يودع الدّنيا دون أن يترك ما يستحق أن يقسّم على وريثه الوحيد أبو الحسن حشاوش.

مرَّ العيد هادئا وخفيفا متضامنا مع الأيّام كأنّه استحى أن يتبهرج أمام حزنها وفقرها، أمّي تذكّرت قائمة المفقودين وبكتهم في الصّباح الباكر، كان الموّال الأكثر حزنا "يا يحي يا عينيّ... وين داوك عليّ"، أشعر أنّ أخ ورديَّة قد حمل معه شيئا مني، ربما يضيِّعه بالعاصمة.

-5-

ظلّت أغنية خليفي أحمد تدور في رأسي سنوات طويلة، وعجزت أن أصل إلى عبقرية صوته فكنت أتمتم بلحنها سرّا، أصبح من قبيل البداهة بالنسبة لي أن أعرف كم مزعجٌ صوتي بسبب عدم تردّد الآخرين في اسكاتي بمجرّد ما أطلق العنان لحنجرتي.

كانت الأغنية

"ولفي من المحبة سقاتني كيسان

بعد أن شربتهم في الضمير وجعوني"[24]

أستعيد تدريجيا إدريس، علّمت ورديّة كيف تروّض الأمكنة وانتهيت في شرح نظريّتي، أسعدني الإهتمام الذي أبدت، استمرّت تحدّق فيّ بعينين تستعيدان ألقهما، تسرّب إليّ شعور بأني أمنحها شيئا مهما، غاليت جدّا في وجودي، ثقة ما تنمو داخلي... عرجاء ولكنها ثقه، أشعر أني لا أحتاج أحدا، بل العالم ينتظر أن أُشير بيدي، يستجدي لساني ليفصح عن يقين ما، في لحظة من اللاجدوى سُدت.

أفيقُ هذا الصّباح، أفتح عيني بعد أن أمارس رحلاتي الاعتيادية في التّفكير وهما مغمضتان، لهفة لا تقاوم كبرت تدريجيا داخلي إلى التّين المغمّس بزيت الزيتون، أقصد الطّاولة لم أجد الفطور، هل قصدت العمل دون أن تحضّر الفطور؟

"صباح الخير إدريس"

أنتبه إلى وجودها خلفي بينما كنت أحكّ ردفيّ في نشوة عظمى، أضطرب تماما وأحييها وأنا أقصد الحمام، لا بد أنّها تضحك الآن في تخلّفها الأوّل عن المرضى منذ أشهر، ما سرّ غيابها؟ أردت أن أسألها، لكنني فكّرت أنّ للنساء أسباب لا يعرفها الرّجال، ألم تجتز وردية سنّ اليأس؟ أصمت وأعود إلى الطّاولة التي اخترعتْ التين وزيت الزيتون، أجتهدُ في التهامه على مذهب الرّاحل عبد الرحمن، أمرّ من رحيل الأحبة مقاومته.

هل تشعرين كم هي مرّة ذكرى رحيلي، رحيلك، رحيل أرضنا معا؟ كم أشتاق...

بعيني وردية كلام خطير، يدها تتحرّك في ريبة على الطّاولة، خطاها كخطى قطّة يحي ساعات قبيل اختفائها، يقولون أنّ القطط لا تموت عند أهلها أبدا، هكذا تكون قد ماتت قطّة خالي يحي في نأي وسكينة عن مذهبه، أقوم إليها

"أنا نشتيك"

"نشتيك" على النمط الجلفاوي في الحبّ، معنى نشتيك لدى أهل الجلفة هو معنى أحبك، كلّ هذا الاشتهاء الجلفاوي هل تفهمه وردية العاصميّة؟ ولكن

أمّا، صديقة أم معلمة؟ كيف أحبها؟

"ياعمري أنت عيني وعلاه أنا مانحبكش؟ أنت وليدي اللّي ما ضنيتوش"

أعرف كلّ هذا، ما لا أعرفه هو حركاتك الغيابية إلى أين يا وردية؟ أتساءل والكلمات حزينة وبائسة وغير ممتلئة بالمعنى، تجويف يطغى على المشهد. حدّثتني عن رغبتها في الرّجوع إلى العاصمة، لعلّها أقنعت المنطقيّ فيّ، لكنها لن ترضي جنوني بشيء لاشيء مطلقا، والدة عبد الرّحمن تحتاجها أم والدتها لا أريد أن أفهم، الذي أعرفه الآن هو الرّحيل القادم ها أنذا أهيّؤني مجدّدا للإنقلاب داخلي، للسّكن بصدفتي، يالي من حلزون متألم.

غادرت وردية بسرعة.

لم تتأنّ الأيّام وخلّفتني ستارا للرّيح، بعدها أجلسُ إلى نفسي أتذكّر شهادة علّقها عبد الرحمن بعنقي وسوف أشرع في الأمل للتحضير لها! فلا أحسب إلا وأنا أمام ورقة الامتحان، "خسرتُ مرّة أخرى" هذه هي العبارة التي كتبتها على ورقة الإجابة، هل تصلح مقطعا معادا لأغنية حزينة في نهاية فيلم يتكئ على درامية متدفقة؟ ربّما تصلح مطلعا لقصيدة ليس بوسعي أن أكتبها وإن اكتملت لديّ كلّ معانيها. شعرت وأنا أعود مساء آخر أيام الامتحانات أني بلا غطاء، كانت حبات المطر الخجولة تعمّق من كسوري وليس معي سبب واحد لأمرح كما يفعل الطلاب خارج قاعات الامتحان هربا من كلّ أسباب الموت التي تجتمع. مطرٌ صيفيٌّ يصاحب مرارة الوحدة وعلى عتبة الباب يستقيل المطر فأدخل ببقايا رائحة السجائر التي تتضاعف على لباسي.

لأنّها غادرت.. فقط لأنّها لم تكن معي ها أنا أسقط ثانية، أشعر

بالاحباط وأجدني بلا أهمية وسط هذه الفوضى العارمة من الصّعود والنّزول.

تحاشى الجميع الحديث عن وردية لكي لا يكتشفوا الفراغ الذي تركته، ظلّت تمارس صرامتها على أسرتنا ويصغي الجميع إليها لسنوات طويلة، ثمّ وفجأة أشاحت بوجهها عن البيت فانخرط في الرّتابة والملل. تركت ورديّة الجلفة مدينتها التي أحبّتها وتركتني لأفشل، أغرق في اللاجدوى... أحملني من فراشي ثقيلا متقلا

وتركت وردة الجامعة وهي حامل بحسب أمّي في الشّهر السّادس، ربما كان إبنا لي لولا...

أغراني الجوّ الهادىء، أحيا داخلي طفولتي المسلوبة، إغتسلت منّي... كم كنت درنا!، دخلت مسجد الحيّ الذي لم أدخله منذ أخرجني عبد الرحمن من الزنزانة، لم أجد أبا الحسن غير أن أوجها تشبهه كانت تلوح صاعدة نازلة في صلاة عنيفة، أصلّي إذن مثلما يفعل المنافق لدى انسداد الطّرائق أمامه؛ يتذكّر الله في العسر، ولكن العسر يبدو أبديا، أستحي من الله، أنكفئ إلى البيت. راغبا في هذه الوحدة التي تتضاعف أن أعيد ترتيب أمر ما قد يكون خطوي، صوت وردية يلازمني وأصعب ما في الحكاية تفاصيلها البّسيطة، تلك الحالات التي نعيشها ونعجز كلّما أردنا تعريفها أو وصفها، هكذا أمري مع وردية في أقلّ من سنة أصبحت كلّ حياتي، ثمّ انصرفت مبتسمة، ألم أكن كلّ حياتها بعد رحيل زوجها؟

بدأت أستعيدني، لست أدري ما الذي دفعني إلى العمل، ربّما ضرورة الحكاية أن أشتغل كاسكافي، الأصحّ أنا الآن عون "مولاي الكوردوني"[25] ليس

صعبا أن تصبح إسكافيا، مولاي عنيف بعض الشّيء غير أنّه سخيٌّ آخر النهار، أحيانا يقتسم معي ما جاد به النّهار رغم أننا غير متكافئين في العمل. في العيد الكبير، بتنا لثلاث ليال نعمل دون توقف، ليلة العيد وجدتني أجني ضعف دخل أبـي الشّهري، فرحتُ كثيرا وأنا أشتري للجميع هدايا العيد، نسيتُ لزمن قيمة ذلك السّلوك الإنساني النبيل. أن تهب أحدهم هدية أو يهبك الآخرون... بدأت أسأم من رائحة الأرجل التي تجعل عينيّ تدمعان دون رغبة مني، لديّ تاريخ طويل في التّباكي ولم أنجح رغم ذلك في البكاء، إعتقدت دائما أنّ الأمر مرض وربّما تأكّدت أني قاس، القاسي جدّا بكائي أمام هذا العفن على أرجل الآخرين. هكذا خيّل لي كلّما أمسكت بحذاء.

مولاي له مناعة غريبة أمام هذه الأرجل ورائحتها، وأخباره مع الأحذية طويلة، فهو يجزم بقدرته على قراءة الحظوظ من الأحذية "قارئ رِجلٍ" كما يقول عن نفسه، أليست الأحذية شاهدا على الخطى؟ يعرف أيضا من الأحذية النّاس وطبائعهم، طيبون أم سيؤون؟ بخلاء أم كرماء؟ عزاب أم متزوجون؟ والأمر لا يختلف مع الجنسين، لكنني سئمت هذا العلم، مولاي اعتبرني مجنونا، بينما كان يأكل سندويشه الممزوج برائحة الأرجل العالقة بيديه المتسختين، أجزم الآن أنّ أيام العطل والنّقاء عذاب بالنسبة له، لعلّه لاينام إلا إذا اشتمّ رجليه ورجلي زوجته، وربّما يتوسّد حذاء وينام داخل حذاء كبير.

تركت العمل عند مولاي قارئ الرّجل وهو متحسّر عليّ، شيء ما يدفعني إلى عصام، رغبة ما في تحقيق التيه والغربة، لكنني نجحت في الافلات من شيطاني.

الدّم تراجع قليلا، وردية لم تنسَ إدريسها تتّصل باستمرار وأفعل أيضا،

دعتني لزيارتها أو قرّرت ذلك، في الأسبوع القادم أزورها في شقتها "ببئر مراد رايس" أفكّر في هدية لها ولا تطول حيرتي إذ أشتري مصحفا، أذكُر أنّها كانت تقرأ يوميا وردها، في اليوم الموالي صلّيت الظّهر في مسجد الحيّ، ما إن فرغت من الصّلاة حتّى نادى عليّ أحدهم ألتفتُ إليه ولم تعتقه ذاكرتي أو تمنحه مكانا، بدا شابا وسيما أنيقا من الأشخاص الذين تحسدهم إذا مرّوا أمامك، من الذين تحبّ الأرض وقع أقدامهم، فتى منسق بلا عناء، سلّم عليّ وكأنّه يعرفني قال أنّ الأصدقاء يبلغوني التحية ويعتمدون عليّ في إسداء خدمة.

– أيّ أصدقاء تقصد؟

– الإخوة

خشيت عاصفتهم فصمتُّ ونفَذتْ كلّ الأحاسيس مني، لا أخاف ولا أتشجّع، أحدّق به مستسلما بينما تتداخل أطياف وكوابيس وصور في لمح البصر صداع جديد:

– هل أنت مستعد؟

– مستعد لماذا؟

– سنترك عندك أمانة لفترة قصيرة

–أجل ليس هناك أيّ مشكل

تركني الشاب الغريب عن المدينة لهجة وملامحا، لم نتواعد ولم أسأل عن طبيعة الأمانة، فكّرت أن أبلغ الشّرطة فتناهى إليّ أنّ الأمن سيعتبرني

متواطئا معهم، إذ كيف يقصدوني من دون الناس، ثمّ لعلها عملية أمنية إن صمتُّ اعتبرتُ مشروع إرهابـي؟ حبست نفسي داخل البيت طوال اليوم وقرّرت أن أسافر في الغد إلى العاصمة لأتحاشاهم، آخر النّهار يُقرعُ الباب أفتح من حظّ أم من شؤم لأجد الشّاب نفسه.

– السلام عليكم

– وعليكم السلام

– أحضرنا الأمانة، إنّها بالسيارة لا وقت للحديث

لم يكمل حديثه حتّى جاء أحدهم بالأمانة. أيّ حمل هذا حسبتهم سيأتوني بورقة أو سلاح أو... حملتها مجنونا، كيس من الأوراق أو ربّما من الملابس، أمّي تقبع بالمطبخ هامشها الأبديّ، لا أحد يرى مأزقي لا شاهد واحد على عملية دكّي، اقتربت السّاعة من الفجر وأنا تحت فوضى الاحتمالات، قمت من هاويتي، سحبت البلية، ثبتها في الخزانة وأحكمت الاغلاق، بدأت أتحوّل إلى كائن آخر، اتّسع خيالي ولم أعد أعرف ما الذي أمليه على إدريس، كأني إنفصلت، واحدي يقرّر والثاني يطبّق والثالث يقف ساهما لا يفهم ما الذي يجري، إقتنيت تسعة أكياس كبيرة من القمح والشّعير، أبـي وأمّي لم يفهموا سبب إحضاري لتلك الأكياس، عندما عدت لأنقلها رفقة سيارة النقل حملت كيس الفحيعة معها، في الطّريق إلى قبب العطايا سألني السّائق "حرث أم علف؟" [26] قلت له حرثٌ للعلف، كنت خائفا لكنّني تشجّعتُ، وصلنا إلى بيت جدّي بقبب العطايا، يكاد يكون مهجورا لولا بعض معالم يحي التي توحي بأنّ البشر مرّوا من هنا، كان يحي معلما وظلّ كذلك حتى بعد رحيله، عندما غادر السّائق

وضعت الأكياس داخل غرفة الإستقبال، واجتهدت في تغليف كيس أصدقائي القسريّين، وزرعه في حوض البروق.

حملت حقيبتي وذهبت إلى العاصمة، في الطّريق لم أر قردة شفة لم يلعبوا من خوفهم وأنا القرد الوحيد الذي يداري خوفه، الأشجار تحترق ولا أحد علّق، الجيش يحرق الأحراش المحاذية للطّريق حيث يتربّص المناذرة بالأبرياء، ألا يشبه ما يفعله أولئك ما فعله المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة؛ عندما تخيّر له يوما لسلب حياة أوّل من يفد عليه وفاء بقسمه إثر اجهازه على نديمه، لكنّ أيامهم تختلف وتتعدّد وساعاتهم كثيرة حتّى أصبح القتل في كلّ حين، وصلتُ العاصمة نزلتُ قريبا من شقّة وردية، لم تكن موجودة، إنتظرتها عند مدخل العمارة بينما كان العابرون يتوجّسون منّي، أحسست أنّ شيئا ما كتب على وجهي منذ تحمّلت أمانة هؤلاء الأصدقاء...!؟

أنتظر على نار شارع مشرّع على الرّيبة، تأخّرت وردية كثيرا، دوريّة الشّرطة تقترب وأتعذّب، توقّفت عندي، النّار تحرقني سرّا والعذاب يلد عذابات داخلي... أُريد الفرار فلا أستطيع... أُريد الصّراخ فلا أجد وجهي، أكاد أتقيأ، أتبوّل، بطني، رأسي، قببُ العطايا تلتهم بئر مراد رايس، يحي يمرّ أمامي سريعا يصعد السلّم ثم ينزل، وأبو الحسن يرقص على أنغام الشّاب حسني، الناس حولي حشود وأنا أنسلّ مني وأراقب الرّعب الذي كان ثمّ أشعر ب.ي...

في المستشفى تهدهدني يدٌ ما، تمسح وجهي وأخبرها. فتحت عيني من حظّي أنّهما مازالتا تبصران. وأخيرا وردية لم أكلّمها، تشير برأسها وكأنّها تفهمني. أين الشّرطة؟ ما الذي حصل؟ كيف جيىء ب.ي إلى هنا؟ تقرّر أني أعاني من الأنيميا وأني سأخضع لفحص شامل. إذن فعناصر الأمن لا يقتلون دائما، سألت

عن حقيبتي فانفجرت وردية ضحكا، ها هي تضحك بعد قرن من الحزن، شعرت بسعادة، فرحت كثيرا، توقّفتْ عن الضّحك فأردتها أن تواصل بهجتها، أعدت سؤالي عن الحقيبة، لكنها أجابت مبتسمة فحسب، المهم أنها تبتسم.

- لم يكن في "خرجك" سوى مرآة، أنت لم تحضر شيئا على الإطلاق

- هل سأخرج قريبا أشعر أنّي بخير؟

- ليس قبل أن أقرّر ذلك

- أنتِ الطّبيب المعالج؟

- أُغيّرني إذا لم تكن تثق ب.ي

لم أجبها وتهيّأ لي أنّ الشّرطة ستدخل قريبا لتعتقلني ولن أجد عبد الرحمن ليفكني من شراك الدولة، "يا وليدي الدولة ذراعها طويلة"، هكذا قال لي أب.ي، أمّا ذراعي فهي موصولة بمصل، خيّل لي أنّ المسلحين سيعثرون عليّ قريبا ولن أجد حجّة لهم، "الإرهاب أعمى" قالت أم كمال المصور الذي قضى في إحدى التفجيرات، إذن أتمنى ألا يراني أحد، أتمنى لو أني أتحوّل إلى كائن افتراضي فوق البصر والبصيرة، أرى الجميع وأعيش في الخفاء.

بقيت في المستشفى مريضا وخائفا، أعيش مع المرآة ساعات طويلة وأُمرّض باقي المرضى بالمستشفى، أصعب ما في المستشفى البياض الرّهيب، الصّمت الرّهيب ليلا، هذا الصّمت الذي قد يمزّقه صراخ أحد المرضى المرعب، كأنه عالم يحيا بطعم مختلف ورائحة نشاز.

رائحة الموت والحياة معا إنه اليوم الخامس من علاجي...

رأفوا ب.ي وغادرت المستشفى إلى شقّة وردية، تعرّفت على عجوز جميلة تشعّ نورا "لا يمينة" كما يناديها الآخرون؛ هذه العجوز ستصبح لاحقا صديقتي الحميمة لعشرين يوما، روحها كانت في العشرين، أخذت منها درس البقاء، قرّرت أن أعود إلى الجلفة حيث لا طائل من بقائي، شُفيتُ تماما أو قليلا وأرويت عيني من وردية سأفتقد "لا يمينة"، عندما هممت بالخروج أحسست أني أخدع وردية إذ لا أعترف لها بحكاية الأمانة. أمام الباب تودّعني وتوصيني بنفسي، أرتدّ من خططي منهارا، حكيت لها كلّ شيء، إعتقدت للحظة أنها ستذبحني؛ أنا الآن أحمل أشياء أعدائها وأعدائي أيضا، حضنتني وبكت.

كم هي رائعة وردية وهي تربت على ظهري وأنا مستلّق كطفل بريء أحشو وجهي بحجرها، هدهدتني حتى أمنت ولم أعد أخشى أحدا وأنا داخل وردية.

– ستذهب غدا إلى الجلفة، تزور مكتب رئيس الأمن

– ماذا أقول له؟

– لن تقول شيئا، أنا سأكلمه في الأمر

وصلت الجلفة خائفا من قدر الموت أو السّجن، في الطّريق انسقت خلف صمتي، طلبت من السّائق أن يوقفني في "عين معبد"[27] نزلت أتصنّع هدفا ولم يكن لي هدف، مشيت كأني سأفعل شيئا ليس بوسعي فعل شيء، قادني تشنتي إلى قبب العطايا، أيّ عطايا في تلك القبب ومن الذي ينالها بعد يحي،

قرأت الفاتحة على أحواض يحي التي تمثلت لي كفتاة كاعبٍ في السادسة عشر؛ تبتهج بقفزات جسدها الأنثوية المدهشة، كانت تلك النباتات سعيدة وفرحة كأنّها ترحّب بشخص جاء من عهد مَلِكِها يحي، الحوض الوحيد الذي لم يحتف بي كان حوض البَرْوَق الفارغ إلا مما دفنته فيه، لم أعرف هذا النبات الذي انسحب ما نوعه، لكنني شعرت بأنّ يحي لن يقبل هذا الوضع، إكراما له سأبحث عن البَروق وسأحضره إلى حوضه ليكتمل الحفل. أردت أن أحفر وأسحب الكيس لكنني خشيته، تردّدت قبل أن أفعل، أعدت سحب الكيس ووضعه إلى جانب أكياس القمح والشّعير التي نكشها الفأر، قلت في نفسي أنّه أمامي خياران مثل كلّ الجزائرين إمّا الموت أو النجاة، لكنني في الحالتين بلا حياة، أردت أن أزرع آخر أحواض يحي الإسمنتية بالبرَوقْ الغائب. قرّرت زيارة رئيس الأمن، خطاي لم تقبل الإقتراح.

أقف عند باب البيت، أفتح الباب أمّي كوكب مطمئن يغزل الصّوف، تطير من مكانها نحوي، للمرّة الأولى تحضنني، كنت دائما صديقها أكثر من ابنها نحن من سنّ واحدة تقريبا؟ تغدينا معا تأخّر جمال فيما كان شريف قد خرج قبل حضوري بدقائق، لم أكن متعبا لكنّ أمّي قالت أنّ وجهي شاحب، وجدت فرصة للإنصراف:

- سأخرج في مصلحة ضرورية

- سأحضر لك عشاء مميزا

ربّما كان العشاء الأخير لم أغب كثيرا عن أمي، ربما قريبا سأغيب إلى الأبد؟

لجأت إلى ناقل آخر وأحضرت الأكياس كلّها، لعلّي بسلوكي هذا أثير الشبهة، أمضي دون أن أعرف إن كان المنطق ما يسيّرني أم الخيال وحده ينفرد بـي، ماذا لو أنّ أحدهم اكتشف أمري قبل وصولي إلى رئيس الأمن، وصلت إلى المدينة دون أن أموت أو تنقلب السيارة ودون تفتيش مفرط من نقاط المراقبة التي كنت أموت وأبعث قبلها وبعدها، في البيت لم تفهم أمّي سبب إحضاري لأكياس القمح والشّعير، بينما راحت تخيط الأكياس الممزّقة سحبت كيسي إلى غرفتي، وخرجت هربا من أسئلة أمّي التي كانت بسيطة وأجوبتها أبسط ولم أتمكن من مواجهتها، عندما عدت إلى البيت وجدت الجميع مجتمعين في غرفتي، كدت أطردهم، إرتبكت وطلبت العشاء بحجة جوعي المفرط فهبت أمي مسرعة إلى مطبخها وأخرجت البقية لأغير ملابسي، أسرع نحو الخزانة، المشكلة رابضة في مكانها كصخرة، لم يهو بيتنا ولا ذابت هي من كرامات أبـي الذي سخّر الله له ثلاثة كلاب يحرسون ذهابه إلى المسجد وإيابه منه كلّ فجر، يتبعونه وينتظرون خروجه ليعودون معه، دائما ينجو ثلاثتهم من القنص العشوائي والمنظم لعمال البلدية وأفراد الأمن، ينجو الجميع بكرامات أبـي، سأنجو حتما... ليتنني كلب، أسحب الكيس ونباح داخلي، نباح وعواء، قلبـي يتزايد خفقانه أنفاسي لهاث، فتحت الوجع القادم... لم أر في حياتي هذا الكمّ من المال ملايين وملايين، تراجع النباح والعواء وتوقّف قلبـي تماما ولم أعد أتنفّس، كلّ هذا المسلوب من المساكين كان بحوض يحي، مال الأبرياء مثلي، أفكّر في الّذي يجب، تتدافع الأفكار حتى لا أعرف في أيّ موضوع أبحث، أضيع، أندثر، أسحبُ المرآة من الحقيبة التي ملأتها وردية، أفتّش في ملامحها الغريبة عنّي، عن اتجاه نحو الفردوس أو إلى جهنّم فلا أرى أيّ اتجاه، أتأمّل الملايين التي حولي فلا أرى أيّ اتجاه، السّلام على عقلي.

لن أنام هذه اللّيلة، فكّرت أنّي قد أسجن، قد أموت، عمدت إلى الملايين آخذ منها ما أستطيع وكأنها تتضاعف، كلّما مددت يدي بما يقنعني وهممت بالانصراف تكاثرت الملايين وزادت حاجاتي، في الواقع أنا لا أحتاج إلى المال، ولكنّ خيبة والدي عندما أموت أو أسجن لا ينقصها سوى بعض من المال، للدّهر نوائب وأب.ي يتقاعد.

صباح اليوم الموالي وجدت أنّ النوم عرف كيف يقتنصني رغم حيرتي التي راحت تنتشر بخبث، خبّأت الذي استطعت أن أوقفني عنده من المال، استرخيت، قرأت جزءا من القرآن، وانطلقت أنتظر رصاصة تسكن رأسي فلم يحصل ذلك، دخلت إلى الشّرطة لم يضربني أحد لست خائنا بالنسبة لهم على الأقل قبل أن أعترف، طلبت لقاء رئيس الأمن وحظيت به

"أهلا بني تفضّل اقعد"

هل سيضربني؟ سيفجّر رأسي ولن يحمل أيّ شارع إسمي سأصبح شهيدا بلا قضية.

"أنا إدريس" أقول له وأنا لا أوفّق في النظر إلى وجهه؛ أرسل عيني في رحلة هروب سريعة على البلاط.

"نعرفك يا طفل" وصمت رئيس الأمن المهيب وتركني غبارا، ماذا أقول؟ أُقسم أني لا أفهم شيئا، لماذا؟ من أنا؟ ما عذاب.ي؟ من أين أنتهي بسرعة؟ وقفت من مكاني مشدوها أبلها هل يعرف الجميع ما ب.ي؟ لو أني أستطيع البكاء، لو أن هذا الماء الجحود يتفجّر من عيني، أصرخ عاليا لكن لا يسمعني هذا التمثال، أين عصفك ب.ي أيها الشرطيُّ؟ ها أنا بلا عبد الرحمن ولم أعد جنديا

دونكشوتيا. أشبهُ بالأحجية المتداخلة كلّما اعتقدت أنك فككتها تشابكت، كلّما انتهت بدأت... كأن يدا على كتفي... كان صوتا يهيب ب.ي أن أظلّ ليس بعد موسم الجنون، جلست على الكرسيّ... جلس فوقي الكرسي! من يرحم وضعي؟

لاحقا عرفت أنّ الرّجل المهيب قد طلب منّي العودة إلى البيت، عدت ولحقت ب.ي دورية شرطة ليلا أخذوا المأزق وانصرفوا، نظراتهم إليّ بدت وكأنّني واحد من الصّالحين تصوّرت لو أنّهم يعرفون بشأن ما منحته لي، عندما غادروا أحسست أنّي رددت المال الذي احتمى ب.ي، كنت خائبا.

لم تعد حكايتي تروقني.

أصل إلى نتيجة مهمّة، أعرف أنّها لعبة الفراغات، من اليوم سأقاوم أيّ فراغ قد يمرّ عبره ألم أو نهاية متجدّدة، وغدا عندما أعود إلى المهيب سأكون حاضر الذّهن، لماذا أبحث عن هزيمة عند كل حصاة في الطّريق؟ مرّة أُخرى أُجهد نفسي لاخراجي من أنا الهزيمة، في الغد وجدت الرّجل مبتسما والجميع محتفٍ ب.ي، قال لي أحدهم "سي عبد الرّحمن ما ماتش رباك وخلاك راجل" عبد الرحمن شفيعا، قال لي رئيس الأمن: "علمنا بحكاية الملايين ولكننا لم نعرف أين خبّأها الارهابيون قبل أن نقضي عليهم"

"هل ماتوا جميعا؟"سألته ألتمس نسبة نجاتي

"ليس جميعا، هؤلاء مكلّفون بمهمة دعم جماعة محاصرة، الأمير وحاشيته ينشطون ب. (براقي) و(الكاليتوس) بضواحي العاصمة".

وجلت قليلا في نفسي، تصوّرت أني سأفلت، لعلّ رئيس الأمن أراد أن

يطمئنني عندما قال لي أن التقرير الذي يعده يتحدّث عن يقظة عناصر الأمن، لا عن تعاون أحد، هكذا سأصبح بعيدا، عندما كنت منصرفا سألني بسرعة مربكة

"هل كنت تعرف كم مليونا بال...؟"

قاطعته

– ربما يجب أن لا أعرف كي أنجو من إغرائها

– كانت هناك وثائق أخرى تهمّنا في كشف تحركّاتهم لولا تأخّرك

أخفي تضايقي

– هل أستطيع الآن أن أنصرف؟

– مع السّلامة سلّم على المدام

أنجو من الدّولة وماذا عن الأخرين، خائن هي ربما الصفة التي أنا عليها بالنسبة لهم، لعلهم يبحثون عني الآن، قضاؤهم الوحيد هو الموت، سأموت لوحدي... إذا كان يجب أن أموت فلن أموت لهم ولا لغيرهم، ثمّ أنا لم أشعر أصلا أني حيّ، قبل أن يصل صوت المؤذن العجوز أُذنيّ، كنت رسوت على فكرة الرّحيل سأذهب نحوهم لن يفكّروا للحظة أنّني بالعاصمة، هيّأت الظّروف جميعها لرحيل معقول ومقنع، السّابعة صباحا كان أب.ي وأمّي كعادتهما في صباحات حميمية لا تُملّ، يحكيان في كلّ الأمور الدّنيوية والدّينية وعن الجميع، ظروفهم ومشاكلهم وآفاقهم، قبّلتهما وشاركت في مواضيعهما أُحضرهما لرحيل لا يعلمان عنه شيئا، ولكن إحساسا ما كان يجذبني نحو الصّمت لا يناسب الرّحيل

الجلسات الحميمية، يصبحُ الأمر شبيها بخدعة، يحي ليلة رحيله لم يعرني الكثير من الإهتمام، لم ينظر إليّ بعين شاردة. فرّختُ كذبة لا أدري من أين، قلت لهما أنّني سأذهب إلى العاصمة لأتابع تكوينا إقترحته وردية، وصدّقوني بل فرحوا لقرار تقفُ وراءه وردية، أعود إلى حوض البروق أزرعه مالا مغلّفا وأتركه يتعذّب...

الحافلة تتلوّى عبر منعرجات شقّة، أفكاري كبيرة لكنني لا أراها.

أتذكّر الجلفة معقل أولاد نائل أتذكّر بردها المزمن، أتذكّر خطايا الكسيرة عبر شوارعها الطّويلة الواسعة، أريد فجأة التخلّص منها وأتساءل لو أنّ جدّي الأوّل محمد نائل لم يختر الجلفة ماذا كان سيختار أرضا لخيبتي وموطنا للبرد؟

-6-

المدن كالنساء، تبدي منها ما تريد لمن تريد، سأقول غير متردّد أن علاقتي بمدني ونسائي كانت متشابهة، جميعها تتمنّعُ، تتصنّع لي ابتسامة تستقرّ بين السخرية والعطف، جميعها تسرّب بردها دون أن أفيق لما بيننا إلا على جمودي وجليد الرؤى.

المدن كالنساء تغريك ولا تعرف ما لك فيها وما عليك

المدن والنساء حالات متشابهة في الكثير من التفاصيل، لا تتشابه في الوفاء، المدينة تفي لسكانها أو القادمين، والمرأة لمن تريد قادما أو ذاهبا.

أشعر وأنا أدخل العاصمة وكأنّها المرّة الأولى، أحسّ بمغامرتكِ، وأنتِ ما الذي انتابك وقتها؟

ربّما كنت الواقع الذي سيتوّج عذابا قديما تخيّلته، بدأت أفكّر في تفاصيل حياة جديدة قد تحمل وجعا أهمّ من الذي فات، وجعا حقيقيا مفسّرا لا تيها وقضايا ميتة. أفكّر في البَرْوقِ لأنسى يحي، أفكّر في يحي فألتفت بحثا عن نبات قد يكون بروقاً، وأزرع في رأسي صورتي وأنا عائد بنبتة بروق يمكنها أن تنطق

اسم يحي.

العاصمة اكتشاف قديم. هنا ضيّع أب.ي سنوات شبابه عاشقا لها وللسرّ العاصمي، أنثى كانت. أليس الضّياع أنثى والرّشاد والحقيقة أنثى، هو الجانب الخفيّ من حياة والدي العاشق حدّ التماهي، انتهى كلّ الذي بينهما وعاد أب.ي كهلا وأحبّ أمّي وتزوّجها، حذّرني من لعنة ما تتربص بنا بالعاصمة، حدّثني عن موت جدّي بها، وعن عمله في ترميم البناءات القديمة في القصبة.

قال لي: "أينما كنت تشبّث بعقلك أينما كنت كن أنت!"

وجهكِ ليس غريبا، أشعر أنّني أعرف هذه الملامح، أشعر أنني رأيتك، وربما عشت دائما أرى ملامحك، تحديدا يوم مولدي... إلتقينا يومها، أين اختفيت من يومها؟ "إسمي....." لا أذكر أيّ إسم قلته، تترتب حروفه في ذهني سريعا وبمجرّد محاولة نطقه يتلاشى، يقترب، يقف على رأس لساني كامرأة في كلّ لهيبها ثمّ يذوب ويذوب لساني، إسمكِ افتراضٌ وأنت حقيقة، قلتِ: "أدرسُ علم النفس بالجامعة" هكذا تعرّفنا إلى بعض أو حشرتُ نفسي في مجالك بالحافلة، أرحلةٌ جمعت بيننا؟ ليتنا لانصل تركتُ لك تذكرة الحافلة، كتبت على ظهرها "أنت ملاك ومدينة أنت تشبهين أفقي"، ظننتُك تذهبين كعلاقة عابرة

تفرضها المواصلات أو الندوات، ظننتني نهاية لا يشهدها أحد، ثمّ أصبحت بسرعة أكبر من علاقة عابرة، أفكّر في أيّامك كيف تقضينها؟، في تفاصيل حركاتك، في رقصك وحيدة، في جسدك

المبهر النائم تحت أثوابك المتشابهة حدّ الاستنساخ، في عينيك السوداوين.

ها أنت مجنون تبحث عن وظيفة للفراغ كلّه. تبحث عن مبرّر للبقاء بالمدينة، هكذا كلّمت نفسي وجريت بعيدا بأفكاري، لكنني إلتقيتك سرّا دون أن أعترف لنفسي أني تربّصت بك، ترصّدتك، بدوتِ أجمل، أبهى وأهمّ أنثى على الإطلاق، لم تتعرّفي عليّ، كنتُ أبدو كأحمق وأنا أنظر إليك مبتسما فاغرا، أردت لو تفرحين بـي فعادة ما يحتاج العاشق شعورا بأهميته، هل كنت مهمّا ولو لمرّة؟ مررتِ في هدوء وبقيت مسمّرا عند موقف الحافلات بساحة أوّل ماي، صعدتِ الحافلة وأنا مسمّر، لم تلتفتي انتظرت نظرة، تلويحة، ابتسامة ولا إشارة، أقلعت الحافلة أُقتلع شيء مني، أردت أن أركض خلفها حتّى تتوقّف، تنتبهُ إليّ فتتاتان تتأمّلان الخيبة والشّداه البادبين عليّ، أغادر بلا اتجاه... كم كنتِ تملئين البلاد الميتة بالحياة.

أستغرقُ قرنًا من الزّمن كي أصل إلى "بئر مراد رايس" عبر "المرادية" إنتظرتني وردية لنأكل معًا، أكلت كثيرًا لم آكل... نمتُ أم هذيتُ؟ لم أكن لأتذكّر ازدحام ذلك اليوم برأسي. المهم أنني لاحقًا اكتشفت ولوجي عالما ملائكيا، صفاءً، كنت ماءً وهواءً، كنتُ بخفّتي التي طالما أردتها ولم يكن الوقت موجودًا... امّحتْ أرقام ساعة الحائط، وساعتي أرمي بها من النافذة، أصبحتِ الوقت، لا أجد وقتي؟ لم أكن شيئًا، الآن أشعر أنني كلّ العالم، ماذا عنكِ؟

لم أنم وبقيتُ طوال اللّيل أُراجع وجهك وخطاك وعبورك الشّهي، طرتُ عاليًا، السُّحب التي لم أنتبه لها يوما أعاشرها سرًّا الآن، والأرض التي كانت تتذمّر من تيهي تدين بـي، لن أنام أبدًا... لن أنام...

في اليوم التالي أمرُّ على الشّوارع الكبيرة بالعاصمة، أُفتّش عنك في كلّ الوجوه العابرة، أراقب خطاك في خطى الآخرين، أردت أن أراك لكنني خشيتُ أن

ترفضي جرأتي، تمنّيت لو أنّنا طفلين نفهم كلّ السّلوكات ببراءة إذن لسهل الأمر.

أحببتكِ.

أحاصرني بالأسئلة عنكِ، وعنّي. أتنازل للقادم مهما يكن، وجع العاشقين أجمل من فرحِ الوحيدين. ولكنني عاشق وحيد يمشي على توقيت لا يعرف متى ينام وأين؟ لا يعرف إن كان سيرأف بكلّ المواجع؟. أصبحت معجبًا بوجهي في المرآة، أكلّمني في هدوء ورويّة وأحتفي بملامحي. لم أعد أجدُ إحساس الخوف داخلي، سأحميني دائمًا مادمتُ...

لم أعرف عددًا لأيامي التي مضت بعدها بين تأمّلها تمشي، تدخل أو تخرج من الجامعه، أو تأمّلها في خيال يتّسعُ لها في كلّ حالاتها التي أفترضها، بدأتْ تتنبهُ لي لكنها لا تبدو متذكّرة لقاءنا الأوّل في الحافلة، إقتحمت صفاءها وبادرت وكأنّي أعرفها دائمًا تعرفني أبدًا، تجاوبت قليلاً وأنا أهذي بلسان لا تأمنه، لكنها سرعان ما بدأت تحكي معي، بدأتُ أرافقُها في بعض طريقها وأتكلّم عن الغربة التي تلوكنا في هذا الوطن. لم أعرف كنه ما أقول معها إلاّ وأنا أقول، أصبحت تهبني قدرة مثيرة على البوح. فسّرتُ الكثير من حالاتي الماضية، أمّا هي فكانت جديرة بالإستماع، حكت لي عن حلم تحقيق الغربة الذي ظلّ يساورها دائمًا. بدأنا نثق في خطانا معًا، لكنّ الوقت يمضي أشهرًا ولم تكن تقول ما يسعدني بصددنا، كأنّها لا تحفِل كثيرًا بكوني رجلاً، كأنّ علاقتها معي علاقة إنسانية مجرّدة من التّجنيس؛ بينما كنت أشعر بأنثاها المهمّشة تتغلغل بـ.ي، مرّة لمّحتُ إلى تأخّرها في التجاوب معي فغادرتْ دون أن تلتفت إليّ، ندمت وإلتزمت الصّمت لاحقًا. حكيت لها عن يحي في كلّ مرّة أردتُ أن أحكي عني، على الأقل يحي لديه تفاصيل وإنتصارات ومذاهب، لهذا فقد تعلّقتُ به وعلّقت على

قامته صورا لي، هل أعجبتها صُوري ونحن نعبر الكثير من الشّوارع دون تعب ولا ملل. جلسنا في كلّ الحدائق، وفسّرنا المجتمع منذ أوّل تكوينه، ولم نحكِ بعد عنّا، عندما وصلنا إلى الحبّ ككائن يقبع بين الأسطورة والموت، قالت الكثير من نظريّاتها لكنني لم أجرؤ على دعوتها إلى تجريب نظرياتها معي، كنتُ على أهبة الاستعداد لأكون حقل تجاربها الأبدي، إستغرقنا كثيرًا في تفسير ذلك السّديم، تلك الجنة.

– أنت شابّ مثقّف وتبدو أكبر من سنّك

– أبدو أيضًا بلا نفعٍ وأنا أمضي خلف...

وضعت يدها على فمي مقاطعة فقبّلتها

– لا تكن جنرالاً

– لا أفهمكِ

– العربيّ الأحمق يتعامل مع أنثاه كحاكم شموليّ مثل جنرال وثكنة، كلّها ترضخ لسلطته المطلقة أو تنقلب عليه فتهدّم المعبد.

أردتُ أن أحبّها، لكنني لم أفهم إن هي وهبتني تأشيرة عبور مشروط أم رفضتني؟ هل شعرت أنّي رجلها أنّها أنثاي؟ طوال شهور كنا منسجمين ولم نتساءل عنا أو لعلّنا كجزائريين نملك ريبة مفرطة من أيّ شيء قد لا يريب، تعرّفت إليها وتعرّفت إليّ بأدق التّفاصيل، خبرتُ طبائعها وخبرت أمزجتي، وحدَها سألتني أن أتوقف عن الشّرب لم أكلّم أحدًا عن الخمر الذي أعاقره سرًّا بجنون جدّي كلّما سنحت لي الفرصة، وحدها عشقت الحمرةَ التي أسفل عنقي، قالت أنّها

حمرة تذكّرها بأبيها، أنا لم أنتبه يومًا إلى هذه الحمرة التي أعرفها في عنق أبـي جيّداَ، بدأتُ أجدني مخلصًا لها وللكأس التي تمكّنت مني تمامًا...

وردية تغوصُ في العمل وأنا أنسى بعضي معها وأحتفظ بالبعض لأعيش معك طيفا أو حقيقة.

عندما دخلت ذلك المساء سألتني إن كنت أريد أن أظلّ معها؟ كأنّي أصحو من غيبوبةٍ، لم أجبها، سكنت شفتيّ إبتسامة أبدية، وإنطلقت هي في حكمة معهودة تفسّرني، لعلّها تكلّمت لساعات، أذكر أنّها أنّبت فيّ الفّشل واللا جدوى وخداعي لوالديّ وخيبتي عبر أزقة العاصمة التي لا تتّحذ موقفا لحدّ الآن، تشيّأت تماما في نظر وردية، عندما قامت كانت تعتذر عن قسوتها، حكمة اليوم كانت "لم يعد لي دور سوى الحبّ". قالت: "ألست أمّا لك؟"، قلت: "أنت صديقة وأخت وأرملة عبد الرحمن".

عانقتني مطوّلا وبكت، أريد تفسير هذه الدّموع المطيعة كيف تأتي ببساطة. نامت وردية واستيقظ فيّ السّؤال، من أين أبدأُ غدا؟ في الصّباح الباكر أحمل حقيبتي وآخذ كلّ الاتجاهات في آن، كان قلبـي يحترق، أعرف عن تشرّدي مالا يعرف مشرّد آخر، خبرتي بالضّياع أعمق مني، متُّ طوال ليال بأكثر من فضاء مميت، لم آمن ليلة واحدة عند مسجد بئر مراد رايس عند مسجد "بأولاد فايت" غرب العاصمة، بتُّ تحت أشجار بجانب الطّريق السّريع ببن عكنون، وداخل غابة بارادو الآمنه المخيفة، وكنت أشرب كلّ ليلة وأستيقظ عفنا، أستحمّ عند أقرب حمّام، أفطر وأنهمك في تغييبـي.

أصلُ الغياب حضور خاطىء.

كنتِ تستمتعين في غياب.ي وحضوري الخطأ، أم ترى يشتاق أبناء اللّيل الهادئ إلى سكاري الغياهب والبرد، إلى أمثالي؟! إلى حفيد "مومن الخبيطة"؟! أتصدّقني يا أيّها الشّريد لم تبكِ ولم تأمن ليلة واحدة.

بعد شهرين من التّشرد أنهكني السُّعال. أصبحت المرآة العجيبة رفيقة المنتهى تحدّثني عن ذوبان ملامحي خفتُ أن تتكرني هذه المرآة، قادتني الخطى المنهكة إلى مرتفعات العاصمة، تأمّلت الجامعة ولم أتصوّر أبدا لو أني نجحت وتخرّجت منها، إجتهدت في حماية مظهري من ملامح التّشرد غير أن قليلا منها علق ب.ي، أردت أن أراها قبل أن أذوي تماما لا أن تراني، كنت فاغر الفم متعبا لا أكاد أحملني، العابرون يقرؤوني تفاهة بأعينهم، لم أحتمل نفسي، لم أحتمل الإنتظار أمام مكان مقدس، فكّرت في الإنتحار، راودتني الفكرة بكثافة حتّى أتت على تركيزي، أتشبّث بلا شيء، ألتفت لأحدّد دربا فإذا بها تراقبني، إبتسمتُ مرغما... سعدت جدّا. الآن أستطيع أن أنصرف. كم ساحرة في حضورها، وسخيّة على الأرض، أودّ لو أصرخ بالعابرين عليّ "هذه أعرفها وتعرف أني لست مجنونا ولا..."، لا أستطيع أن أنفي صفة الشّريد، حملت خفّتي وثقلي وقناطير من الحبّ والوحدة والصّمت في آن. لوعة وجسد بلا لون ولا شكل. أردت أن أنصرف لكنها لوّنتني، طهّرتني، وهبتني اسما ضيّعته، وحجما ترضى به الطبيعة ولا أحلم به في هكذا وضع، أيضا هنا أعجز عن البكاء، لحقت ب.ي، أمسكت يدي ومشينا، إنّها لا تخجل... هذه القوّة كلّها يا لها من أنثى! بدت حزينة ومنهارة، دعتني لنشرب شيئا أو نأكل إن كنت جائعا غير أني أفهمتها أنّ مظهري لن يكون جذّابا داخل قاعة شاي أو محل إطعام سريع، إشترت عصيرا وسندويشا، وجلسنا قديسة

وشريدا، تهيّأتْ لتبدي قوّة، لتجذبني إليها، لتنقذني من جنون أو نهاية أزحف نحوها تزحف نحوي، ثمّ انهارت تبكي من خوفها عليّ، من فقدها لي وربّما من طيبتها هي الأخرى معي، الرّجال التّافهون من أمثالي قليلا ما يستطيعون الإرتقاء إلى مواقف إنسانية، قليلا ما يحسنون سلوكا حيوانيا، إنّهم مسخ، لا أحد يفعل بـي ما تفعل دموعها. أردت أن أُخفّف من شهيقها أن أمّحي الآن فتهدأ، أردت أن أبكي أيضا، أن أصبح مهمّا في لحظة، أن أُشفق على جرحها، أردت لو أُعانقها، لكنني لا أرى منّي سوى الجزء الذي تعلّق بها، أمهلتني الوقت الكافي لشخص يعرف الحياة لتوّه قبل أن تسألني ما الّذي يعصفُ بـي؟ لم أكن أملك جوابا في حياتي الماضية أبدا، لم أجب على أيّ من الأسئلة الكريهة التي قزّمتني دائما، تذكّرت وردية التي كانت تسأل وتجيب عني.

- إفعلي مثلها

- مثل من؟

- إفعلي مافعلته وردية. فسّريني كما يحلو لك وسأقتنع بما تقولين

- تحتاج إلى إبداع صورتك لا إلى قتلك، ابدع نفسك إبحث عن الإستثنائيّ فيك وكفّ عن قتلك

كأنّها تترجّاني أن أكون مهمّا؛ قضيّة تستحق التّبني. كأنّها قالت لي: "أنت الآن تافه لا تستحق شربة ماء"، كبرتْ وهي تقف إلى جانبـي، وصغرتُ وأنا إحتمال واه. إفترقنا على أن نلتقي بعد شهر، هي من قرّر ذلك ورضيت به وليس بوسعي أن أرفض حتّى وإن صدّتني ورفضتني، طلبت أن نلتقي ولكن بعد أن أكون سيّدا لضياعي، بعد أن أكون قد نفذتُ إلى الأمان ووصلت إلى قرار في

حياتي، قالت أيضا بصوت متهدّج يقاوم البكاء: "ربّما تكون حياتنا معا"، إنصرفتْ بعد أن ألقت بجيب.ي قطعة من فئة مائة دينار؛ في الواقع لم أكن بحاجة إلى المال إذ إعتدت تمضية يومي في المشي وأكل وجبة واحدة عادة ما تكون حساء حمّص أو لوبياء. في آخر النّهار لم أعد أستطيع أن أقف على رجلي، خارت قواي ووجدتني قريبا من وردية. وقفت دهرا مرّا أمام عُسر الباب متردّدا، وللأبواب قسوتها، كم كنت أحتاج إلى البكاء، كم كانت دموعي متجمّدة كأنثى باردة إلتصق فخذاها بذراعيها، كم كنت محتاجا إلى وردية وأمّي وإلى النّوم والأكل وإلى شراب روحيّ يعدّل دمي بعد أن شربت وادا من"البيرة"، أخرج من حقيبتي المرآة لأستشيرني فتفتح وردية الباب، أعيدها، ولا أنبس ببنت شفة، أنتظر أن تدخلني أو تخرجني أو...، أكاد أسقط أرضا وهي عالم جليديّ، أستدير يائسا فتمسك يدي، أعود من الموت، أرجئُ موتي قليلا. أنا مشتاق إلى هذه المرأة الحكيمة أُعانقها، تعانقني أحترق ولا أبكي، بلّلتْ كتفيّ قبل أن تنتبه إلى موقفنا عند الباب، أدخلتني ولم أتكلّم في أيّ شيء، دخلت الحمّام، أجهدت نفسي في الإستحمام، خرجتُ نظيفا أو قليل الدّرن والعفن، وجدت المائدة تنتظر محتفية ب.ي. أكلتُ ولم نتحدّث كثيرا، نمت على حجرها بينما كانت تفلّي رأسي وتمسحُ على حاجبيّ طفلا يتجاوز العشرين، صباحا قرّرت أن أُغادر نحو الجلفة، في الحقيقة كنت أبحث عمّا خبأته. شهرٌ كفيل باعادتي مدهشا هكذا فكّرت وأنا أهمّ برحلة التّجدّد الموعودة، لم تكن سوى خطوة واحدة بعد الباب حتّى مادت الأرض من تحتي، سواد عظيم لا أشعر ب.ي وأنا أمسك بالجدار... تمسك ب.ي وردية، فحصتني وكنت ممدّدا كما لم أتمدّد منذ شهر، لعلّها كانت تتحدّث عن ضغطي الدّموي لا أدري ما به، قرأتُ في عينيها الجميلتين تدهوري، هرمي، أقرأتني رقادا آخر في المستشفى، لم أنجح في التحايل عليها. تقول أنّها تستطيع مراقبتي جيّدا هناك، في حين لا تأمن

عليّ بالبيت مع "لا يمينة" المنشغلة بثرثرة مستمرّة عن الماضي والثورة وأولياء الله.

أجدني كعادتي أُؤخّر الخطى تتأخر من تلقائها.

راقد بالمستشفى لست فاقدا للوعي لا أتألم، لكنني خائر القوى.

ثقبت وردية ذراعيّ حد ازروراقهما، كلّ يوم أنتظر أن تطردني، ألا يوجد من هم في حالة مزرية، الميتون، المشرفون على الموت وحدهم من يستحقون النّوم هنا، أمّا أنا فكنت أبحث عني، تتأخّر وردية في الحديث عن خروجي، أعرف هذا اليوم إنه خميس النّحس والسّعد بالنسبة لي، كلّ الحوادث التي مرّت بـي سعيدة أو تعيسة كانت خميسا حتّى خيّل لي أنّه لا يمرّ خميس إلا بفرح أوحزن، وحتى تلك الخميسات التّي مرّت هادئة لم آمنها؛ بها أسرار لم تتكشف لي، عرفتُك يوم خميس، وعرفت وردة يوم خميس وانتهينا من بعض يوم خميس، وانتهى عصر يحي فجر خميس، الحقيقة أن حتّى مولدي كان يوم خميس. مرتاب ولا أثر لوردية، المرضى إعتادوا أن يطلبوا مني أشياءهم، بعضهم لا يعرف إن كنت مريضا أم ممرضا، كنت أسهر على حاجاتهم بينما ينام الممرّض البدين جسدا وسلوكا في ركن خفيّ، لم أستدلّ عليه إلا يوم سقط الشّيخ بوعلام وبحثت عن مساعدة؛ وجدت نعليه فوق بعضهما تحت سرير سرّيّ في آخر الرّواق، كم كان نائما ذلك البدين الأحمق، كم كنت مستيقظا.

"هكذا أنت تفقد كلّ طاقة تكسبها" علّقت وردية التي أصبحتُ همّا لها، أُغادر المستشفى إلى بيتها. علِقت بذهني أحداثُ حلم لم أُرد أن أصحو إثره، كنتِ تجلسين عند رأسي وتكلّميني عن ضرورتي في الحياة قلت لي: "أنت مهمّ على هذه الأرض من أجل توازنها، أنت أفضل منك الآن".

لم أكن أحلم لعلّك جئتِ حقّا، إرتبت من السّؤال عن شخص يكون قد جلس إليّ ليلا وكنتُ على يقين أنكِ كنتِ هنا، قمت ليلتها من فراشي أمسحُ على الكرسيّ الذي كان يجلس بجانب.ي وأُقسمُ أنه كان دافئا دفئك، كنت هنا وحدّثتني. قضيت بعض الأيام عند وردية لا ألوي على شيء عدا إقتناء بعض حاجيات المطبخ والفطور بالتين المغمس بالزيتون، ومتابعة مسلسل تلفزيوني رخيص، أدخّن في غيابها كثيرا وفي حضورها أكبحُ نفسي، ولم أشرب منذ اللّيلة التي أفضت ب.ي إلى فتاتي. خيّل لي أنّني أزن قنطارا.

ب.ي بعض من الإقتدار، أفكّر أن أهتف لها فينتابني خوف من ردّها إذ أخلّ بعقد أبرمته هي عنّي معها يفصلني عنها لشهر، لم يبق منه إلا ساعات قليلة، والحقيقة أنّني أرضى بهذا الفراق الذي يبدو يسيرا مع ما ينبغي أن يلقاه صعلوك مثلي من آنسة تفكّر قي صناعة تاريخها.

أُغادر العاصمة بحثا عن يقين ما يشدّني، هذا سفر أسطوريٌّ يشبه تماما الأسفار التي يقوم بها العشاق بحثا عن علاج سحريّ لحبيباتهم النائمات أبدا، أو سعيا خلف كنز ممكن أو بحثا عن أصل ضاع، ألا أشبه حكاية تصلح لتنويم الأطفال؟ ألا أشبه حكاية تصلح لتخويف الأطفال؟ أفكّر في نهاية ممتعة للحكاية فتصل السّيارة إلى حدود الخريف، عُدت دون خفّي حنين، كانت المدينة تبوح للمرّة الأولى بأشواقها وتبدو أكثر حركة، أُفتش داخلي هل من شعورنحو هذه المدينة؟

البرد يحتل الفضاء والداخل معا.

-7-

لم أكن أنتمي لعائلة ماتريركية ولا عائلة بطريركية، لكنها عائلة تؤمن بأمي وتدين بالحب لوالدي، الماتريريكة التي عشناها لم تكرس سلطة المرأة الأم، بل أخذت الخصوبة والحب، والبطريريكة لم تكرّس التفاوت والطّبقية، فأمّي كان بوسعها أن تصرخ في البيت ويكون أبـي في صفّها حتى وإن كانت تصرخ في وجهه، وأبـي كان بامكانه أن يتنازل عن سلطته كلها لأمي في لحظة وأن يسحب منها كل السلطات متى رأى ذلك مناسبا، تكوّنت علاقة نائية بيننا، حبّ بلا وصل، لم نعبر يوما عن حبنا لبعضنا، الجميع صامت ويعرف ما يجول في خاطر الجميع، حياة سرّية في كلّ تفاصيلها، اتفاقاتها وعواطفها وميولاتها، سرّية وموزّعة بعدل بحيث يمكن كشفها ولكن ذلك لا يحدث كي تستمر الحياة.

أُمّي بدت أكبر مما تركتها قبل أشهر قليلة، كانت تحضنني وتسألني عشرات الأسئلة بحيث لا أستطيع أن أجد جوابا لها بينما تتأمّلني وكأني أعود من معركة وتمسح وجهي بيدها، جميعهم يمسح على وجهي متى أرادوا أن يحبّوني أو يعطفوا عليّ إلا أنا أنتبه إلى الحيرة التّي به كلما حدّثتني بالمرآة، أبـي كان فرحا بعودتي ولم ينتظر أن أقول شيئا ليشرع في سرد الذي كان في غيابـي، لم أنتبه

إلى حكاياته التي راحت تعقّب عليها أمّي مصحّحة أو معارضة بينما يتبادلان النّظرات السّعيدة بـي وببراعتهما في السّرد. الفصل الأهمّ في جميع ما قالا مرض وردة التي لم تهنأ بزواجها من الهاشمي ولا ببنتها الجميلة جدّا، قالت أمّي: أنّهم سيأخذونها إلى فرنسا قريبا، وأغدقت في مدح أخلاقها وإحسانها للآخرين، أردتُ لو أُحدّثها عن أنثاي وروحها الملائكية، لكنها سألتني عن وردية.

غرفتي في آخر الرّواق مرتّبة ونظيفة، كلّما غادرتها تحرّرت منّي وتألّقتْ كأنّي أهدي المتاعب للأمكنة، إعتدت أن أبسط سلطتي على الأمكنة التّي أتوقّف بها، أُغيّر من وجهها، أُعيدُ ترتيبها أو لعلّي أُبعثر ترتيبها، هكذا تصبح موالية وهادئة وهكذا آمنها.

بعثرتُ بعضا من ترتيبها قبل أن أتمدّد على السّرير البارد الذي طلعتتن منه، أنت ووردة وبينكما جلست وردية تبتسم وتهدؤكما، كنتُ في صفّكِ وفي قلبـي شيء من الحزن على وردة، هي تعرف هذا السّرير قبلكما قلت لكِ ولوردية التي سخطت وأخبرتني أنّها من اشترى هذا السّرير، أمّا أنت الملاك الأبيض في الملاءة السّوداء، فقد أذعنت لأنسانيتكِ وشرعت تتقرّبين من وردة وتبثين فيها الأمل.

دخلت أمّي بكأس ليمون وجلست في حميميّة إليّ

"أعدت زائرا أم ستبقى؟"

لم يكن معي جواب

– أجل

– هل ستبقى؟

– ربّما

– وماذا عن الدراسة؟

– هناك أكثر من سبيل

– المهم مستقبلك ونجاحك، أنا ووالدك نكفل لك رضانا، رب.ي يعاونك يا وليدي

شعرت أنّ ضياعي كبير جدّا وأنه لا شيء في الوقت نفسه، كانت أمّي على الدّوام وطنا جميلا، قبّلت رأس أمّي وأردت لو تدخلني في صدرها، لا يسعُ ضيقي هذا السّرير الذي لا أعرف إن كان يكبرني أو أكبره، ولا هذه الغرفة التي تحتلّ ذاكرتي ببرودتها التّي تغربلها من أقسى أجواء المدينة، سألت أمّي عن السّرير فقالت أنّ وردية هي من أهدانيه في عيد ميلادي السّابع منذ خمسة عشر سنة خلت.

نبتة البروَق لم تكن يوما برْوقًا، في الصّباح قصدتُ قبب العطايا، في الحقيقة لم تكن القبب إلا قبّة ليحي رجلا صالحا يحتفي بالطّبيعة وتضمّه هي إلى عناصرها بفرحٍ كبير. ولم تكن العطايا إلاّ ما يضمّه حوض البروق الفارغ حيثُ خبَّأتُ الملايين. تفقّدت كنزي دون أن أخاف للمرّة الأولى، مازال للمال رونقه. حملت الكنز من غير هدف محدّد فقط أريد أن أغتسل به من عفني وأحدِّد لي مكانًا يرضيكِ، بتُّ لليلة أخرى بمنزلنا نام معي أخويّ شريف وجمال مصغيان لرواياتي الكاذبة عن إبهاري للآخرين بالعاصمة وعن مالي الذي سأحصُله قريبًا

والذي سيحقّق كلّ غاياتهما الطّفوليّة، أراد شريف كرة حقيقيّة من جلد، بينما إختار جمال لعبة إلكترونية كالّتي يملكها أبناء عمّه عامر، ووعدتهما أن يكون لهما ما أرادا قريبا، ناما مبتسمين بأسمالهما البسيطة.

أغادرُ الجلفة غنيّا أحمل حقيبة من المال الذي لم أتعب لأجله، لم تكن الطّريق بطولها المعتاد، دنت العاصمة كثيرًا. حجزتُ غرفة في فندق قديم بأحد الشّوارع المفضية لشارع حسيبة بن بوعلي، العاصمة هادئة وباردة وأنا أشعر ببعض الألم كلّما إزداد الظّلام، غرفتي البسيطة لا تحتوي ما أعيث فيه بعثرةً لا سلطة لي عليها، أتمدّد في مكاني وأخشى الحقيبة التي قد سببيتها. اللّصوص وربّما أصحابها غير الشّرعيين يصعدون السّلالم، أتصوّر وقع أقدامهم يزدادُ إقترابًا... أفتح النّافذة فلا أتشجّع على هذا العلوّ... أتركُ النافذة مفتوحة وأختبئ تحت السّرير، هكذا أموّههم فينصرفوا خائبين، أدخل تحت السّرير ويدخلون الغرفة لا أحد يُطلّ من النافذة ويد خَشنة تهتدي إلى كتفي، سَحبتني من تحت السّرير وأصيح "ينبغي لكم أن تنظروا من النافذة ثمّ تنصرفوا خائبين"، لم تعجبني هذه النهاية إذن: يقتربون من الغرفة، أغلقها وأصعد إلى الطّابق الأعلى، يصعدون خلفي، أصعد أيضًا فلا يتراجعون... أجدني على سطح الفندق، ألقي بنفسي من هذا العلوِّ وقبل أن أسقط أغيّر مجدّدًا من النهاية الجبانة. يدخلون الغرفة فلا يعثرون عليّ لأني سأختبئ بالخزانة الجدارية، لكنّهم يفتحون باب الغرفة، باب الخزانة... رصاصة في بطني تلِدُ عشر رصاصات؛ كلّ رصاصة بوجه أعرفه، ورصاصة في رأسي تكبر أكبر من رأسي. أعود إلى البرودة تنخرني فأجد جسدي يتصّبب عرقًا، الخوف من الموت أمرّ طعمًا من الموت ذاته، أسحبُ ورقة نقدية من الحقيبة لا أدقّق في قيمتها أمسحُ بها عرقًا يتصبّب من رأسي، وورقة أخرى من فئة مائتي دينار أجفّف بها إبطي وألقي بها من النافذة

لعلّ أحد المدمنين يلتقطها، أشمّ الورقة الأولى فأتحسّس طيبتها ممرّغة بعرقي، فيها رائحة أوراق أمّي النقدية التي تحتفظ بها في جيبها السرّي داخل صدرها.

تلك ليلة رهيبة لم تهبني القدرة على الحلم ببراءة بلحظاتٍ ممتعة معكِ. أعبر إلى غدٍ مشمسٍ أقلّ برودة من البارحة، أتلفتُ عُلبة ونصف العلبة من سجائر "النّسيم" الرّخيصة مقارنة بوضعي الحالي لهذا سأشتري علبة "غولواز" من التّبغ المهرَّب الجيِّد.

عندما هممتُ منصرفًا وقفتُ أستلم بطاقة هويتي من العجوز صاحب الفندق وعامل استقباله، هكذا مراقد قديمة لا تحتاج إلى موظفين، سلّمني رخصة سياقتي، متى تعلّمتُ السّياقة؟ في مدرسة عصام صديقي القديم هو من علّمني القيادة وهو من إشترى لي الرخصة؟ أستطيع أيضًا أن أشتري سيارة.

إشتريت سيارةً؟ ربّما يبدو الأمر غير صائب، لكني أعرف كيف أتصرّف، أُفكِّر فيكِ مساء هذا الخميس وأنا أتأمّل سيارتي الجميلة، في الغد صلّيت صلاة الجمعة كشابّ صالح متأنّقٍ ونظيف ثمَّ تجوّلتُ عبر العاصمة، وطفتُ حول العمارة الغريبة التي تسكنيها شرق العاصمة غير مرّةٍ، وركنتُ سيَّارتي في تباهٍ وجلست بمقهى يمكنني من خلاله أن أجسّ الحركة في شرفتكم، أردتكِ لو ترين كم كنت مهمّا وأنا أدخّن سيجارة الغولواز وأعبث بمفاتيح السّيارة، كلّي ثقة. أشعر أنّي الأهم هنا، فجأة أتذكّر قداستكِ وزيفي أتجزّأ ينطلقُ جسدي وأبقى أو العكس، عن أيِّ مني كنت أتحدّث؟

مساء السبت وصلت إلى الجامعة في أعالي العاصمة وألتقيتها، لم تتماسك وهي تراني لعلّها يئست أن تراني مجدّدًا بعد شهرين من الغياب عوض

واحد إتفقنا عليه، كانت تمشي نحوي بل تهرول ثمَّ تلتفت لصويحباتها معتذرة، ترقص عيناها. وجدتني أنيقًا واقفًا كالقرار، فرحتُ وأنا أتطاول وكنتُ أشعر براحة كبيرة. هي العادة القديمة كلّما تورّطت انسابت الأكاذيب من تلقائها لتنقذني، أحدّثها عن رغبة أحدهم في إستثمار ماله؟ وكيف إقترحتُ عليه أن أفتح له وكالة عقارية وأديرها في حين أحصل على نصف عوائدها، وصدقتني وحدثتها عن إستدانتي لبعض المال مع ما بقي من غلاف المشروع من أجل شراء السّيارة، كانت تطير فرحًا وكنت أهتدي إليَّ، أجدني أخيرا بعد قرون من الضّياع.

في غضون أسبوع أصبحت الوكالة جاهزة، إنتظرتُ أيّامًا قليلة لأكمل الإجراءات القانونية وأشرع في العمل، وظّفتُ شابة جميلة راقني أسمها قبل فاعليتها في العمل "حسناء" بدت فاهمة لأصول العمل بالعقار أكثر مني، في الحقيقة أنا لا أفهم شيئًا في العقارات وبيعها وشرائها أو كرائها وبالكاد أعرف دور هذه العلبة التي فتحتها، لكن مع وجود حسناء بدا الأمر سهلاً إذ أصغي لها وهي تتعامل مع الزّبائن القليلين وأتعلّم بينما أُظهر فهمي لعملها وأشجّعها وقد تستشيرني في بعض أمور العمل فلا أجد لها جوابًا فتجتهد لتجد حلولاً، لم أكن أطمح مع وضع كهذا أن أقتسم معها الدّخل التافه الذي نحصّلهُ أو بالأحرى تحصّلهُ هي؛ كنت أدفع لها بسخاء مقارنة مع فوائد نشاطي، لا يبدو إطلاقًا أن هذه تجربة ناجحة، ولكنني أصغي لكِ، لوردية وحسناء فأصرّ على المواصلة.

بدأت علاقتي بكِ تأخذ منحى جادًّا، كأني أغيّر الحكاية على نحو صادم، هل يفترض أن أفعل هذا أم أنّ الجميع سيتهمونني باقتراف خطأ في البناء، ربّما كان يجب أن أموت عند حوض البروق، ربّما كان يجب أن أجدك رفقة شخص أهمّ مني، وربّما كان أكثر صدقا وأنسب أن أتوقّف عند الفندق

الأول، يُسرق المال ويُعثر عليّ مقتولا في غرفتي، لكنني خشيت من الإختناق، لو أنّ قاتلي سيطلق عليّ رصاصة رحمة لكنت فكّرت في الأمر، أمّا وأن إحتمال الافراط في ليّ العنق وارد فإني لن أغامر ب.ي، لهذا سأواصل بشكل مختلف، ولا أخفي عنك سرّا إذا قلت لك أنّ كلّ النهايات محتملة الآن.

أصبحنا نلتقي كثيرًا وأصبحت لا تستحي أن تُعرّفني على صديقاتها الجامعيات اللّواتي يتغامزن ويتهامسن حول الشاب الناجح الذي تعرفه، تزورني في الوكالة وأحيانًا بشقّتي ذات الغرفة الوحيدة والتي دفعت إيجارها لسنتين، نقترب كلّ يوم أكثر والتّفاهمُ الذي بيننا أحسدني عليه، غير أنّ ضميري كان يقظا تمامًا. داخلي لم أكن سعيدًا سوى وهي معي أمّا دون ذلك فأنا أفكّر في المال الذي أعمل به ومشروعيته، أفكّر في العلاقة التّي بيني وبينها وهي تفلتُ من عقال العقل والمنطق، كان معها نسخة عن المفتاح وكثيرًا ما كنتُ أحسُّ بها في الشّقة فأقفل عائدًا لأجد طبيخًا شهيّا ووجهًا أشهى. تدريجيًّا كنا نتدحرج نحو الهاوية، تتعلّق ب.ي وأرى عقلها القدير يذوي أمامي كأنّي الخراب، اللّعنة والنّحسُ، أسلبها صلابتها ومنطقها دون قصد، بتنا في تلك اللّيلة الرّبيعية معًا، أوّل مرّة أشعر فيها بالفصول منذ سنوات، إنّهُ الرّبيع الذي اختفى، كان في عينيها ربيع البلاد الذي هاجر، كنت أفرّ من قسوة الواقع إليها حلما لا يعترف بالسلطة ولا بالمسلحين ولا بالشعب المقسّم بينهما سرّا. أصبحتْ كثيرًا ما تتأخّر وتبيت لدى صديقتها التي كُنتها باقتدار، صغرنا أو فلنقل صغرتِ أنتِ على إعتبار صغري منذ فجر التاريخ.

مرّت أشهر وأنا أتعرّف على نفسي كلّ يوم بشكل مختلف، ألبس أكثر من ثوب فلا يناسبني إلا ثوب التيه، هي كانت بوصلتي وأنا تيهها الذي لا يمنحها

قدرة التوجيه، انخفضت وتيرة الزّمن وتراجعت سطوته على خطايا، نسيت تماما من أنا وانخرطت في عصر جديد ليس له ذاكرة حجرية، مرّة كنت أعبث في فراشي عندما مرّ طيفُ "العاشقيْن الخجولين" شعرتُ أنّ الحجر أصل الإنسان، كان هذياني صادم بالنسبة لها، انتبهتْ إلى ما أقول مرتبكة، ألم نكن قساة في الكثير من تاريخنا الإنساني تماما كحجرٍ أصمّ، ألم نكن بلين الرّمل؟ أصلنا حجري، إعتقدت أنّ "العاشقين الخجولين" صناعة طبيعية لا علاقة للإنسان بها، رواية أولى ليعرف الإنسان المتأخّر سرّ وجوده.

إنتهينا مجرمين، تأخّرت دورتها الشّهرية، إنتظرنا لأسبوع... لعشرة أيّام... توقفت عادتها الشهرية تمامًا! صباح الخير وجع الموسم. كانت تبكي وتلطُمُ وجهها، تندُبُ حظّها وتحدّقُ بـي كأنّي غريب عنها، لعلّها عجزت أن تعرف إن كنت حبًّا أو تهلكة؟ إن كنت نجاتها أو منتهاها؟ لم أجد ما أقول ولا ما أفعل.

– أخطبُكِ

– أحمق أتحسب الفضيحة تختفي خلف خطبتي!

– نتزوّج غدًا إن أردت؟

– وأمرّغ وجه أبـي في التراب

– أموت لكِ هكذا تندثر بطنكِ؟!

– أنت في مزاج معقول جدًّا... عندكْ الحق المصيبة ديالك راهي هنا

وتضربُ على بطنها، تشدّ عليها وتنهار بكاءً، أستجدي عقلي فلا

يحتملني، ألتفتُ أم تدورُ الغرفة، أنظرني على المرآة المثبتة بالحائط بلا ملامح، أتساءل ما الذي أغراها في تيهٍ كهذا ثمّ ها هي تنهار، تتهاوى أمامي، تتملّصُ من عقلها ولا ألوي على شيء! فجأةً تنهض تبتسم قليلاً لتدفع عنها الحزن فيتكثّف على شفتيها، تشدُّ يدي وتتمسّحُ ب.ي، أحضنها وأفتِّش مجدّدًا عن الدّموع فلا أجدها، أفكّر في هذه العيون الخرساء لو أنّها تغورُ ثم تتفتّق ماءً غزيرًا، تتحدّث أرجِعُ من عينيَّ إلى نورهما.

– قسوتُ عليك إدريس أنت لا ذنب لك أنا التي تهوّرتُ كثيرًا

– كلانا شريك في الخطأ دعينا نفكّرُ في مخرجٍ

مزيجٌ بين نشيد طبيعيّ إلهيّ وبين رقّة طفوليّة بشرية، لا يمكن إيذاؤها، كانت تستحق أفضل من وضع كهذا، خرجتْ تجرجر خيبتها وبقيتُ أعتصرُ وأتمخّض دون فائدةٍ، في هذه اللّيلة الصّيفية العصيبة أدخل فيَّ تمامًا وأهجرني تمامًا بسرعةٍ لا أحسنها، أشتاق إلى وردية إلى عبد الرحمن وإلى والديّ، أضيع وأكتشف "روشيه الموت" في الغرب الحجريّ البحريّ، أشربُ ندامة وأتمرّغ مثل المجنون على الصّخرة التي أغرتني بنأيها وعلوّها، أتعرَّى إلا من قطعة واحدة وأكتشف أنّي لم أعد أخشى العلوّ، ضيَّعتُ الرّهاب القديم من الأماكن العالية. أنتصر فجأةً وأنكسرُ بجهدٍ هو قدري، كيف أنقذُ هاته اللّؤلؤة من خدوش قدري؟

أتذكّرني البارحة وأعجز أن أطوّق الحكاية، طوال النّهار أتسكّع بهذه السيّارة المعفّرة عبر شوارع العاصمة المختنقة، وكلّما قذف ب.ي شارع إلى آخر واصلتُ بلا وجهةٍ محدّدةٍ، لم أعرف أيّ يدٍ ينبغي لها أن تشدّني، فضّلتُ يد وردية التي تكون مشتاقة وحانقة، أعرف كيف أُسكتُ غضبها بمجرّد الصّمتِ تقرأُ أيّ ألم

ب.ي، فتحت وردية الباب مبتسمة، لكنّها سرعان ما أخفت إبتسامتها طالما لم تجد لها ضرورةً، جلستُ أُفتِّش عن لغة أحكي بها فلم أعثر على لغةٍ أو رموز أو إيماءات تقولني وتقول فضيحتي بسلمٍ ودون أن تُحدِثَ عواصفَ وزلازلَ، أرادت وردية أن تساعدني فبادرتْ بالسؤال:

– هل أنت في مشكلٍ ما؟

– ربّما أنا في نهاية ما

– هل تحتاج مالاً؟

– إطلاقا

– تكلّم إذن ربما أستطيع أن أساعدك

أمسكت لساني لوهلةٍ وأطلقتُ له العنان يَقودني إلى فضيحةٍ، أحكي وأضيع من وردية ومني ومنكِ، أحكي مآلي ومآلها ولا أعرف إن كنتُ أشيرُ إلى الأمور، إن كنتُ أفصِّلُ فيها. لا أعرفُ إن كنتُ وقحًا أم...؟ وهل يكون المرء في موقف كهذا غير واضحٍ! وَجهُورديّة أسودٌ ويدها على فمها، أنتظرُ أن تنطقَ بشيء أن تجدني وتهديني، أن تطردني وتنهيني. لا تفعل شيئًا تحدِّقُ ب.ي بينما ألعنني مليون مرَّةٍ وأنتفضُ من مكاني، تمنعني من الخروج ولا أستطيع أن أقاوم أية إرادة لأيٍّ كانَ، أنا هباء.

– اسمع سأذهبُ في الغد وأحدِّثُ أمها

– أخاف عليها

- لا أحد يؤذي كبده، خاف على روحَكْ

غدًا أوصلها إلى بيتكم، أتركُها عند باب العمارة وأفرُّ، لاحقًا سوف تحكي لي عن تفاهتي في ذلك البيت، أمُّها سألت عن أصلي ولم يعجبها رغم أنّها لا تعرف جدّها الخامس؟ وسألتْ عن مستواي ولم يكن ليعجبنا معًا، غادرت وردية بيتهم مصدودة، قالت لي أنّها قبل أن تخرج سألتهم أن يفكّروا جيّدًا ربما يستحقّ هذا الرّجلَ ابنتكم وربّما توافق هي عليه، ألتقي معكِ وتبرّرين موقف أهلكِ، كأنكِ أردت أن تقولي لي أنت لا ترقى إلى نسبهم...؟ وكالعادة بكيت وندمت ولطمت وجهكِ وانصرفت إلى الجامعة مدارية ورطتكِ بعد أن لوّنت قليلاً وجهك الشّاحب.

بادرت أنا بالإتصال بأحد إخوتكِ الذي بدا وكأنه يكلِّمُ أحد عبيده، ولكني أتمالك نفسي من أجلكِ، رضي أخيرًا أن نلتقي، جلسنا في غير تكافؤ على طاولة واحدة هو يتحدّثُ من قمّة توهّمها وأنا من سفح وضعني فيه ورضيت. عندما التقيت شقيقك شعرت أنّه الكلاكيت الأخير يُقرعُ على أحلامي.

- مانعرفكش شكون أنت؟

- لا يهم الآن من أنا تأخذ قهوة، شايًا، عصيرًا؟

- لا ما نشرب والو

أحدِّثه عن رغبتي في خطبة أخته فكأنّ على وجهه الموت، أغرق في شرح الحكاية، لكنه لم يكن حاضرًا منذ البداية، أحكي له قليلاً منها أجزاء عن الحبِّ فحسب. لم يصبر حتّى أنتهي من القصّ ليقاطعني "أدرست معها؟"،

خدشني السّؤال ولكنني تشجّعتُ وأجبته "أنا تخرّجتُ قبلها، الآن أنا أدير وكالتي الخاصة"، قبل أن يسألني كان عليّ أن أحدّد جوابا، لم يمنحني فرصة لأجده "وكيف عرفتها؟"

أردت أن أصفعه، أقول له أحبها وأريد الزّواج منها فيسألني أين عرفتها! أخبِّئُ بصدري ما يذبح رجولتكَ. أريد لو أصفعه مجدّدًا أرغب في حمايتكم وتدفعوني إلى...، إنتهينا متوترين لم ينظر في وجهي وهو يغادر قال لي أنا لا أوافق، وإن أردت رفض أهلها أرسل أهلك إن كان لك أهل ليسمعوا...

لم أحرِّك ساكنًا. إنصرفتُ أشعر ببردٍ يتغلغلُ داخلي وشقيقها أخذ بعضًا مني.

لم تحضري مساءً ولا في الغد، وبقيتُ أنا أدور قُرب حيّكم أشتمّ خلاصًا ما أو ورطةً قادمة، أحرقتني الحيرة وما التقيتك لليوم الثالث، لم أدخل الوكالة منذ أسبوع ولا أعلم ما الذي يحصُلُ بها، أتمدَّدُ في هذا المساء وأسفُّ التبغ الذي جعل الغرفة تختنقُ، فجأةً تَفتحين الباب... لن أصدِّقَ أنّكِ جئتِ وحدكِ، ربّما أهلكِ جميعهم عرفوا الغواية وجاؤوا عن بكرة أبيهم ليقتلعوني، لن أقاومهم وسأمنحهم عنقي لأكون شهيدكِ، ولكن ما الذي فعلوه بكِ أنت البريئة؟

تدخلُين عبر باب الغرفة تتخلّصين من نعليكِ بانزعاج وسرعة، ترتمين بأحضاني الخشبية، لا أفهم سلوككِ ولا أسعى لتفسيره يكفي أنّكِ تتنفّسين هنا، لم تكلّميني وبعد أن تمسّحت بـي كقطّة باردة قمتِ إلى المطبخ تطقطقين كما في السَّابق، وغصتُ أنا في تأمّلكِ عبر باب الغرفة الوحيدة الذي يفضي إلى المطبخ والحمام معًا، كنت حيّة تتحرّكين كنحلةٍ، طفلة تلعب وترقص داخل قلبـي،

غفوتُ قليلاً دون أن أحكي معكِ، هذا الصّمتُ لا أعرفه معكِ، من أيّام التشرُّدِ وأنا أحكي وأقنعُ وأكذبُ، إنّه صمتُ التّعبِ واللاَّ جدوى إغفاءة الذُّهولِ، بالكاد أغمضتُ عينيَّ حتَّى أيقظتني شفتاكِ لا أرغبُ في النهوضِ ولا في شفتين ابتذلتهما وأتعبتهما، ألوذ بالصّمتِ.

"هل متَّ يا أبا جنيني؟"

لا أريد أن أتكلّم، لكن رغبة ما في الضّحكِ تحيقُ بـي، وأنتِ تمازحيني كأنّنا في سَلاَم

"إذا كنتَ ميتًا فسأُسمّي ابنكَ إدريس ليحيي ذكراكَ"

متُّ قليلاً وعدتُ لا يمكن أن أتركَ إبني بلا اسمٍ ولا هويَّة، قَبّلتني مجددًا

"أستيقظ أيُّها الأخرق ليس ثمّة ابن ولا بنتٌ نزل القطرُ وانتهينا"

أنتفض من مكاني

- أعيدي الذي قلته؟

- لست حاملاً كان خطأ في التقدير وتأخّرٌ بعض الشيء بسبب اضطرابات نفسية

أصفَعكِ وأحضنكِ، وآكلُ يشراهة الكباب الذي تحسنيه، بينما كنت سعيدة وجميلة وطاهرة.

- عدني أن تحمني منكَ ومنّي

– أعدكِ أن أقف إلى جانبك وأن أصونكِ

كانت هزّةً عنيفة، أوصلكِ إلى الجامعة، في الطّريق تحكين لي عن "ميموزا"[28] التي كانت تدرس معكم في الجامعة والتي حبلت من حبيبها في آخر ليلة لهما قبل أن يلتحق بالجيش، ميموزا أحالتني على البَرْوَق، كنت تحمدين الله أنّ مصيرك لم يكن كمكصير ميموزا، أمّا أنا فلم أكلّف نفسي عناء السّؤال عن ميموزا، ركّزت تماما في البروق، أيكون أمر آخر غير النبات؟ عندما هممت بالنزول من السيارة سألتك إن كنت تعرفين البروَق؟ سألتني ّ"ما هو البَروق"؟

أنصرف إلى الوكالة التي نسيتها. حسناء المسكينة تجلس وحيدة كأنّها تحرس شارعًا عموميًا بلا أضواء لا يستحق الحراسة، دخلت فانتفضت من غيابها إليَّ.

– أهلاً إدريس هذي غيبة لا أنت ولا هي تقلقت عليكما يا خويا أنا قلت ماتوا

– مازال حيين حسناء

– كيف يمضي العمل؟

– ليس هناك أيّ عمل

في الحقيقة كنتُ أعرف أن الوكالة ولدت ميتة، أنا لم أكن وسيطًا سوى في ثلاث عمليات تأجير لزبائن لم يأتوا إلاّ بتمويه، أحدهم طبيب شاب أرسلتهُ وردية وطلبة فلسطينيون أرسلتهم أنتِ، وعابرٌ ألقى به حظّه نحوي، إلى هنا وأكون قد تورّطت مع حسناء التي تنتظر راتبها لهذا الشهر، أردتُ أن أكلّمها في الأمر

فشرعت تشرحُ لي وضعي.

"لا تهتم إدريس أنا أساعِدُ نفسي بنسخ الرّسائل والشّكاوي وتصوير الدّروس للطلبة هذا كلّه بفضلِك، ثمّ أنا أرى بعينيَّ حال الوكالة".

قدَّرت ظروف اللّعبة أو العلبة وزالت حمّى الجنين، وبدأتُ أهدأُ إلا من إحتقاري من أهلها، في النهاية أجدُ عزائي في حبِّها وولائها المطلق.

نمت خفيفا وتمنّيت أن أحلم بك، أن ألتقي يحي الذي اشتقت إليه، لم ألتق يحي ولم تعبري في أحلامي، أعرف أنّ عددا من الكوابيس والأحلام تداولت عليّ ولكنني أنساها بمجرّد إفاقتي، لا أريد أن أتوقف عند هذا التفصيل لأني أعرف أنّك ستوغلين في دواخلي، وتشرحين لي كلّ النّظريات التي تلقيتها في الجامعة، وتمارسين تبجّحك النّفسي، ثمّ إنّ أيّ طفل يمكنه التكلّم عن التّحليل النّفسي وفرويد والأنا الأعلى مثلكِ والأسفل مثلي والهو مثل شقيقك. أنا أريد أن أفهم اللّيبدو أريدك أن تشرحي لي هذه الجزئية دون توقف إلى غاية استيعابي لنا.

-8-

عندما كنت صغيرا قرأت قصّة تاجر البندقية في كتاب للفتيان، لكنها لم ترق لي، أكثر ما شدّني في صغري مجموعة الكتب التي كان يقتنيها والدي ليوجه أفكاري إلى العلوم والتقنية، كتاب "الماكنات"، كتاب "السّفن والبحار والمحيطات"، كتاب "جسم الإنسان"، أعجبتني تلك الكتب وصورها التفصيلية ولم يتح لي أن أعمّق معارفي في التقنية والعلوم، عكس القصص التي تأتى لي أن أطالعها، وأن أتنبأ بمنافذ أبطالها، لكنني لا أتنبأ لي باي منفذ، ربما يحصلُ هذا لأني لست بطلا، ربما أنا بطل حقيقي لكنها ليست حكاية تحكى؟

أصبحت مثل كبّةِ خيطٍ لا أحدَ يعرفُ أوّلها من آخرها إلا إذا شرع فيها وفرغ منها، فكيف أصلُ إلى نهاية خيطي دون ألم؟ كيف أعرف الخلاص؟

أواصلُ أدائي بقليل من البراعة، هذا اليوم الشّتويّ من أواخر ديسمبر العنيف يشبه الأصل في الدّوامة التي أخبط فيها عشواء. تركتُ حسناء في مهبّ الفاقة بلا سندٍ، الأصحُّ تُركنا معًا بلا سندٍ بعد أن انتهى أمر مشروعنا وفشلت الوكالة. تباشير قدوم الرّئيس الجديد للبلاد تلوح في الأفق، ونحن نشتاق لرئيسنا الذي سيغادر، الشّارع يتساءل لماذا يريد الرّئيس أن ينسحب؟ قبل العثور على

جواب تبدأ مشهديّة الرّئيس الجديد، البعض يتغنّى بأمجاد جيل الثّورة، البعض يمتعضُ من الشرعيَّة الثورية طويلة العمرِ، أقِفُ أنا مرتبكًا لا أعرف أين أمضي فيما يَصخُبُ الشّارع بالشعارات واللافتات والملصقات، تدَهوَر وضعي المادّي أكثر وأصبحتُ أتحسّس عريَ القادم. خالتي نيسة صاحبة الشّقة الصّغيرة لم تعُد تسردُ ذكرياتها وهي تدخِّنُ سجائرها كسمسار، هذه العجوز تعرفُ كيف تجعلُ حبل المودّة واهٍ متىَ تأخّر أحدهم في سداد ديونه، تملكُ نيسة التي تحتفظ بكلٍّ مؤشّرات الحسن في الثمانين من عمرها، أكثر من شقّة تؤجِّرها في الغالب للشّباب والطّلاب الذين كما روت دائمًا يجعلونها تشعرُ بالحيوية ويشسّعون من مساحة "بشير" زوجها الأوّل الذي مات قبل الإستقلال، ورغم ارتباطها ثلاث مرّات بعده إلاَّ أنّها لا تحكي عن بقية أزواجها وإن اتفقوا على توريثها ما تنعم به، ليس لديها سوى بنتٌ تسكن في فرنسا والغالب أنّ سلوكها مشبوهٌ من خلال الأوصاف النابية التي كانت لا تتوانى في إطلاقها عليها كلّما أدركتها أزمة السّكري أو ضيق التنفس، لم تكن نيسة العجوز تعارض وجود فتاة معي، بل كثيرًا ما كانت تحيِّي فيّ نباهتي بحركات وقحةٍ لا تتقنها إلا هيَ وكثيرًا ما التقت فتاتي وأوصتها أن تأكلني كي أبقى وفيًا لها، حبيبتي كانت تتمنّى عليَّ الرّحيل من هذا المكان مشكّكةً في ماضي هذه العجوز المتبرّجَة، أمّا أنا فكنت أمازحها وأؤكد لها اعجابي بها "إذا راح الزّين يبقاو خطوطو"[29]. يعجبني احتفاء نيسة بأنوثتها التي انطفأت.

لم أجد حلاً ونيسة البخيلة رفضت أن تجدّد عقد الكراء ورفضتْ أن أدفع لها بالشّهر، كلّمتها بحدَّة التأنيب وبرقّةِ الحبيب وبالإنتماء إلى مذهبها دون جدوى، أقطبتْ، نفثتْ دخانًا أسودًا وتجهّم وجهها.

– يا وليدي راني مريضة تقدر تربح ما عندي والو ليك

– يا خالتي أصبري عليَّ شهرا واحدا وسأحصّل المال الكافي

– لديك أربع وعشرون ساعة لا أكثر

أردت أن أستجديها عندما صفقتْ الباب بوجهي، فكّرت أن أحرقَ لها الشقَّة هذه الشّمطاء العاصية أو أن أدخل إلى شقتها ليلاً وأخنقها، هكذا ينتهي سرّها إلى الأبد. كنت صاحب وكالة عقارية إلا أني لا أتقن التّعامل مثلها، إعتقدت دائما أن نيسة مدرسة في كلّ جوانب الحياة إلا في فعل الخير، كيف كانت تحبُّ بشير إلى حدّ محو كلّ ما يتبعه، كلّ ما يسبقه؟ في صدر الصّالون كانت نيسة تضعُ صورة كبيرة لكلب بشير، ألتقطت منتصف الخمسينات، وظلّت تردّد كلب بشير أفضل من بشر اليوم.

لم أجد مخرجًا في أربع وعشرين ساعة ولم أكن لأجد مخرجًا في أربع وعشرين يومًا، أُغادر الشقّة اللّعينة بعد أكثر من أربع وعشرين شهرًا من الذّكريات مع جسد يراوح مرحلتين، إمّا يكون ملتهبا لدرجة يحرق فيها كلّ مبادراتي ويحيلني على البلاهة، أو يكون باردا ومستسلما فأبدو أقلّ رجولة كلّما اقتربت منه، ظلّ الصّمت بيننا حكاية أهمّ من جسدينا، البرد تحوّل إلى لغة لها أبجديتها التي نفهمها، في اللّحظات القليلة التي تسرّبت فيها المتعة إلى جسدينا كنا نشعر بالصّدمة، مذهبنا كان السّكتة الكبرى لجسدينا، فسّرت وحدي ذلك على أكثر من وجهٍ، مرّة قلت أنه عليّ أن أنزلها من القداسة لأتمكن من جسدها، لم يفلح الأمر، جرّبت أن أخطّط لحكاية مثيرة بيننا عبر الهاتف قبل أن نلتقي، إستدرجتها مجدّدا دون جدوى، كنا سنصبح أبوين، كان ما بيننا عشوائيا وتقليديا، تماما كأيّ

امرأة ورجل نزلا من أقصى العُقد التي علّقت على جدار الحياء والتقدير، نافران من بعض في كلّ التحام، ملتحمان في كلّ نفور.

لم يكن سقوط عهدٍ، لم تكن نهاية حقبتي مع الخمر والجنون والأحاديث الطّويلة إلى المرآة الرَّحيمة أو مع نيسة اللّئيمة، كان مطلع عهد جديد ملامحه لا تختلف عمّا مضى، كأنّ الحياة ابتسمت لي تهادنني ثمّ عادت إلى طبيعتها.

أعود لأفطر بالتّين وزيت الزَّيتون لصباحٍ واحد حيث كانت ورديَّة منشغلة بنشاطها النضالي داخل منظمة لضحايا الأزمة الوطنية؛ هكذا أصبحوا يسمّون الحرب التي دارت رحاها في كلّ مكان وفي اللا مكان، بين الجميع وبين لا أحد، هذه الحرب عمّقت الفجوة بيني وبين ذاتي، شرّدتني وشوّهتْ أفقي، ولستُ شهيدها ولا أحدا من نجومها، أنا ككلّ الذين عاشوا الشّداه والترقّب والسّؤال، ربّما استثمرت قليلاً من الوقت في الحبِّ والتمرّد، لعلّ الحبّ أحد أسباب البقاء في المشهدِ المؤسفِ، لعلّه أحد الأجوبة الصّامدة في وجه إعصار السّؤال، لم تنتبه ورديّة إلى وجودي، كانت شقّتها مليئة بالنّسوة اللاّئي يضحكن سرًّا ويبكين علنًا، وربّما منهن من تقدّس الإنتقام ولكنها لا تدري ممّن، أصغي إليَّ أُغادر المكان لا تنتبهُ وردية، لم أعد شيئًا في ذاكرة وردية التي لم تعد تذكر عبد الرحمن بقدر ما تسعى إلى الصُّراخ، كأنّ هؤلاءِ النُّسوة الثكالى والأرامل يلتقين من أجل طقس يوفّر لهنّ سببًا في الإستمرار، يلتقين من أجل نحيب جماعيٍّ، أمضي موغلا في تاريخ يحي، وقامة يحي، ونظرة يحي، لا أحد يريد أن يستعيده... حتّى الأعشاب ترقص للرّيح غير مبالية بعرّابها المغدور في صمته، كان يحي سينطق لمنظر مشابه، الأعشاب تميل رغم أن الحداد يمنحها أكثر جمالية في غياب الصّمت، في حضور النحيب الجماعي.

سيَّارتي إتحّدت مع الجوّ العام لحياتي وساءت، تدهورت... أركنها تحت العمارة حيث تسكن وردية، الجيوب الخاوية تستفزني في السَّعي إلى عملٍ ما، أيّ عملٍ، ظفرتُ بعمل لدى أحد التجّار الكبار بسوق الحميز، لم أستمرّ أيامًا قليلة حتى طردني، ذلك السّمين كان يتقرّبُ منِّي بخبثٍ بينما يتطاول أبناؤُه ويجتهدون في التّاوب على أمري، كُنتُ منهمكًا في العمل عندما نادَى عليَّ ربُّ العمل الذي أحظى لديه بمكانة لا أرغب بها.

– كيف تجد العمل لدينا؟

– لا بأس الحمد لله

– سوف أعمل على رفع أجرك لاحقا

– شكرا لك

– ماذا عنك؟

– لا أفهم

– ماهي إهتماماتك هل لديك أصدقاء، صديقات؟

إعتقدت أنّه يمازحني وأردت أن أبدو في نظره بصورة الناجح في علاقاته الإجتماعية فأجبته ضاحكا ومستحيا في آن

– لديّ صداقات مثل كلّ الشّباب

– لدي إقتراح لنا معا ولكن ينبغي فيه الكثير من السريّة

– تفضل إقترح ما تشاء

– سوف أدعوك أنت وأصدقاءك أقصد صديقاتك إلى شقتي المطلة على البحر نلهو ونستمتع

فهمت تقريبا أنّه يريدني قوّادا لا غير، أسفتُ على نفسي كم أنا تافه في ذروة عصر الشقاء، رفضت عرضه وبدا لي متقبّلا حتّى أنّه منحني ألف دينار كمكافأة، قلتُ في نفسي لعلّه يجرّب معدني، وشكّل هذا طمأنينة لديّ بل لعلّي اقتنعت به.

أفيق باكرا، أقصد المتجر نشطا، تتملّكني رغبة في العمل، أدخل فلا أرى رغبة لدى بقية العمال في تحيّتي، يُخيّل لي أنّهم غاروا من المكانة التي أحظى بها لدى سيّدهم، خاصة إذا كانوا بهذه السّن جميعهم تجاوز الأربعين ويعملون لديه منذ سنوات، أعطف عليهم وأتنحنح واثقا من مكاني الكبير هنا، لكنّ صراخا جافّا كان ينطلق من مكتب السّمين خدش المشهد، ويسارع الجميع لمخاطبتي "جاوب الحاج راه يعيطلك"[30]، "الحاج" كما اتّفق للجزائريين أن يسموا المحترمين من السّكارى والسّياسيين والمسؤولين والتّجار، أتبيّن طبيعة النّداء فأجده اسمي أليس اسمي الذي يختم العالم بسين حادّة؟ أليس اسمي الذي يبدو كسورٍ بلونين أحدهما كسير مثل الألف المخفوضة، والآخر وقح مثل سكون السّين؟ بالكاد تعرّفت على نفسي حتى كانت كتلة اللّحم الأكبر في العالم أمامي

"ما الذي فعلته ياكلب؟"

كان المعلم "الحاج" السّمين ذو المنّة يخاطبني أنا بالكلب، سقط السّور بوجهيه، تصوّرتني على أحد جدران نيسة، لن أكون أقلّ بهاء من كلب حبيبها

بشير، لنفرض أنّي كلب لماذا يناديني هكذا؟ أليس للحيوان حقوق ثمّ إن أغلب الكلاب وفية ولديها أسماء تنادى بها، كما أنّها أممٌ مثلنا وقد ترفُض الكلاب إلحاقي بها، لم أجد جوابا أهمّ من قبولي هذا التجنيس

- هذا الكلب إسمه إدريس

- لا يهمني إسمك ما الذي فعلته مع السيدة المحترمة أمس؟

أية سيدة منذ متى يحضر محلّه سيدات؟ لم أفهم عن أيّ موضوع يتحدّث وشككت أن أكون قد نسيت

- من منهن أمس فعلت الكثير مع الكثير من السيدات المحترمات؟

- إذن أنت تعتقد أنك في منزل مواعدة أو كابريه يا كلب؟

- قلت لك مرارا أنّ الكلب الذي يعمل عندك يدعى إدريس

لم أكد أكمل اسمي النّحس حتى انهال عليّ أبناؤه الضّخام ضربا، آه لو تعلمين ما فعلوا ب.ي... أخرجوني ككلب حقيقي مريض... بدوا أُسودا ضارية وهم يتكاثرون من حولي ويشتموني كلّهم في الوقت نفسه كلّ بما حفظ، أما أنا فرحتُ أتدحرجُ في الشّارع ككرة وأصغي إلى تداخل لعناتهم التي أصبحت في رأسي الدّامي كأغاني الرّاب العصيّة والصّخبة والمفيدة أحيانا، شعرت للحظة أني أقترب من يحي، رأيت بابا يشبه باب بيت جدّي بقبب العطايا، ألم يتكالب على يحي عدد مماثل من الكلاب؟ قال أحد المارين "فليذهب إلى بلاده هذا الشماته"[31]لم أفهم! حسبتُ الأمر إضافة فنية لهذه المشاهد الحركية التي تمثّل ب.ي حيث أنني مازلت جزائريا لسوء حظّ هذه البلاد، تركتُ العمل عند الأُسود وبتّ

ليلتها في سيارتي المركونة بحيّ بئر مراد رايس تحت البناية التي تسكن وتناضل بها وردية، لم أُفكّر في زيارتها، أتأمّل وجهي في المرآة العاكسة بالسيارة فلا أعثر على الكثير من ملامح الكلب الذي كنته، غيّروا مني لكنني أحمد الله على نجاتي... أستسلم للنوم داخل كثافة الدخان الذي حجزتُهُ بالسّيارة، على الأقل أستطيع أن أمارس سلطة على دخاني... أعطّل تفكيري، ولكن هل كنتُ أفكّر؟

أتسكّع بباب الوادي الحيّ الأحبّ إلى أبـي سنوات إقامته بالعاصمة، حيث كانت تسكن حبيبته وزوجته الأولى، لا يكفُلني أحدٌ والحكومة الثالثة في السّنتين الماضيتين لا تفكّر بجوعي لأنّها تفكّر في ما هو أهم، ولأنها متماهية مع عبقرية الرّئيس الجديد القديم، أسفل السّاعات الثلاث تتشكّل مجدّدا إحدى جدران القرن الماضي، أقسم أنني رأيت حشاوش أبو الحسن ولم يكن قد تغير كثيرا، لقد أعادت له الأجواء العامة لحيته وتبدو عليه بعض من النعمة، يمشي باتجاه سيارته الفارهة لعلّها ليست له، خمّنت لو أذهب إليه ربّما عانقني... ربّما يسألني عن مال الخوانجية الذي سلّمته إلى الدّولة ونستني ونسيتها، تردّدت ومضى أبو الحسن إلى سبيله، أهل الحيّ يلوّحون له كأنه منهم، ربّما لم يكن هو وتصدّعت ذاكرتي وخفّ نظري بعد فيلم "الكلب والأسود"، ترى هل يعرف أنّ والده مات وفمه ممتلئ بالبنّ؟

ليس معي سوى سيارتي الخردة أجتهد لبيعها في أقرب الآجال، تلتصق بـي... ترفض التنصّل منّي والمبيت فيها تحصيل حاصل. وردية لا تنتبه لحركتي كلّ ليلة داخل السيارة ولعلّها تنتبه ولا يعنيها، أشتاق إلى وردية التّي كانت قبل السياسة والنضال، أشتاق إلى التين وزيت الزّيتون ولا تشتاق لي وربّما لم تعد تعرفني، وأنتِ الوحيدة التي خبرتني رجلا من غبار لم تعودي بالألق الذي

عرفتك، أطفأتُ جذوتكِ ولم نعد نلتقي إلا قليلا صامتين كأنّنا ننذر بعاصفة، تدريجيّا أصبحتُ أتحاشى اللّقاء معك تتحاشين ملامح الخيبة الأبدية المحفورة بوجهي، أنتِ جعلت لنفسك ذريعة التحضير لرسالة تخرّجك، وأنا أمطّ الخطى في استحاء... أنشد أهدأ النهايات فلا أهتدي إليها. لا يخيفني التّشرد بل على العكس، أشعر أنّ تفكيري يكون سليما كلّما تعرّيت للرّيح، أشعرُ أنّ الفطرة في بني البشر الوحدة والعري، ألم نولد أفرادا ونحن الذين افتعلنا الجماعات؟ ألا نموت أفرادا فلا يشفع لنا حبنا للآخرين؟

عندما استيقظت ذلك الصّباح كنت أُفكر في خمود الحلم... في حلم جديد قلت في نفسي- وأنا أشاهدني في المرآة رواية مريضة البناء- سأبدأ من جديد مع أنّ كلمة جديد تبدو غريبة في صباحاتي اللّعينة.

قصدت باب الوادي، يحمل هذا الحي الكثير من عبق التاريخ، هو واحد من الأبواب الأربعة القديمة لمدينة الجزائر العاصمة، أتفاءل خيرا وأنا ألج باب الوادي عبر تريولي، لا أدري ما الذي يحرّكني صوب باب الوادى هذا الصّباح، بل لعلّي أدري وأبحث عمّا يشبه الصّدفة، لم ألتق أبا الحسن ولكنني أشمُّ رائحة تمثيله البارع في أنفاس المكان، لقد طوّعه وأنا لا أملك أن أفعل الشّيء ذاته إذ لا يمكنني أن أُحوِر شيئا على الإطلاق، ربّما لو أنّ بـي قدرة على مسح الرّصيف أو تغيير الطّريق أو محو بعض المباني وبعث أُخرى... لو أنني أُغيّر من ألوان البنايات البيضاء والزرقاء التي تتّجه إلى الرّمادي، ربّما كنت أملك المكان وولاءه إذن أنا تحت رحمة حشاوش لا أعرف أيّ تقاليد ينبغي أن أقوم بها كي أدخل في دين أبـي الحسن، أليس لأبـي الحسن دين؟

في الغد كنت على يقين أنّني سألقى الملك المظفّر، رآني قبل أن تقع

عيني عليه هتف باسمي، مازال يعرفني لم يتنكّر لي، ولكن هل يتنكّر القائد لأهم جنوده على الإطاق؟

"إدريس أيّها المارق"

كان يتحدّث من سيارته الفارهة التي لا يمكنني أن أعرف ماركتها قبل أن ينزل لعناقي "أين كنت، كيف عشت لا بد وأنك في الجامعة أو ربما تخرجت أنت تعمل هنا بالعاصمة؟!"، سلسلة من الأسئلة تكفي لإذابة جدواها "لا" التي خرجت من فمي كسيرة، وليست "لا" رفض أو موقف.

كان يسأل وهو يشدّني إليه معانقا، بدا بصحّة جيّدة ولم يكن جسدي الورقيّ يتحمّل عنفه الحميمي، لم أجب بغير لا النافية ولم يكتف من الأسئلة، أدرت وجهي في غير اتجاه، ملامحي لا تقبل التّفسير إنّها غير معقولة ولا أريد أن أصدمه بهذا الخليط، خمَّن المعاني الغريبة، كأنّه اكتشف الأمر، صمتَ قليلا وقرأ وجهي فيما ركّزتُ أعصر الوضوح علّ بعض الغموض ينجلي عن وجهي، تعبت من وجهي ومن سطوة أبي الحسن ومكانته، كانوا يغنون فيما سبق "باب الوادي الشّهداء"، الآن المكان ملك لأبي الحسن، لعلّهُ شهيد! أُفكّر أنّي شهيد وأنّ الشّهادة هي التي قادتني إلى هنا، لكنّ الجزائريين جميعهم شهداء وباب الوادي لا يسع الجزائريين جميعا، تعبت من دخولي في أسئلة وتصوّرات تنفي الواقع، أرجعني حشاوش إلى أرضه عندما إعتقد أنني كبرت كثيرا، سألته أين كان كلّ هذه السّنوات؟ فضحك وحوقل ثمّ تنهّد ولم يجبني، عاد مجدّدا يقرأُ تهويمات وجهي ويبتسم بينما كنت أرتبك من هذه الوضعية، ولا أجد لي منفذا سوى في البحث عن أسئلة خوفا من البحث عن أجوبة، سألت أبا الحسن إن كان يعلم بموت عبد الرحمن؟ قال أن الكثيرين قضوا في السنوات الأخيرة ولولا الهدنة

لمات أكثر، لم يجبني إن كان هو قاتله أم لا، ولا إن كان يعرف باغتياله. طالما أحسست أنّ موت عبد الرّحمن هو تدبير من أبـي الحسن، إيعاز منه أو ربّما كان بيديه، الآن لا أُريد من حشاوش شيئا، أنا بالكاد أذكر عبد الرّحمن؛ وأرملته من فرط تذكّرها له لم يعد يعني لها الكثير وهي تمارس نضالها، أتمسّك بأبـي الحسن الذي هوى ذات مرة ووقف، وهويت وما زلت أنقاضا.

سيارته تشقّ غرب العاصمة وروحي تشقّ شرقها. "أين تعمل؟" سألت أبا الحسن الذي بدا مستغربا بعد أن قرأ كثيرا في وجهي فلم يعثر على شيء ذي بال، أنا متأكّد أنّهُ لم يعثر حتى على اسمي لم يجبني وبادر بسؤاله، أعرف هذه اللّعبة، قال لي: "كيف عشت في السّنوات الأخيرة؟" أجبته مرتين، داخلي قلت له: "تشتتُّ ككلّ ضحاياكم بالكاد أتنفس وأعرف الذي أفعل"، وأجبته أنني كنت ككلّ البشر أسعى إلى العمل والحياة.

- ألم تتخرّج من الجامعة؟

- لم أكن يوما بالجامعة؟

- ولكنّي أوصيت بك في الثانوية وكنت مجتهدا؟

صمتُّ، ولكن لغة يحي كانت تنطق داخلي "وأوصى بـي عبد الرحمن وأبـي ووردية وأمّي ووردة وابن عمي وعصام، الجميع أوصى بـي ولم أنجح، تصوّر لم أنجح يوما"، وكأنّه يخبر عالم يحي يقول لي صامتا "مازال أمامك فرصة للنجاح".

توقّف أبو الحسن "بدرارية" حيث يسكن مع زوجته، أتزوّج؟ لقد خدعني

مع جميع الأخوة "الخوانجية" ألم يقل لي أنّ الاخوة مستعدون لتزويجي؟ ثمّ ها هو يتزوّج، تغديت معه ما لذّ وطاب في شقته الجميلة، ورأيت ابنه الملائكي، أيمكن لأبـي الحسن أن يكون أبا ولا يستطيع عبد الرحمن؟ ابنه ينادي عليَّ "عمو" وكنت أحبه جدّا، سماه والده "عبد الرحمن"، جميل هذا الإسم قال لي أبو الحسن وهو يبتسم وأضاف "المدام راها بالحمل على شهرين تكون له أختاً"، كيف عرفت جنسها أيّها الحشاوش؟ تطوّر أبو الحسن كثيرا، لاحقا سوف أعرف أنّ زوجته بنت لأحد القادة في الجبل، مات شهيدا مثلي تماما؟ وأنه أوصاه بها فتزوّجها، لم أتركه يواصل شهامته قاطعته

– أكنت في الجبل؟

– الحكومة طلعتنا بالسّيف

– كنت تحارب وتقتل وترى الموتى أليس كذلك؟

– وأتعرّض للموت وأرى النهاية ألف مرّة في الدّقيقة، وأشتاق إلى نوم كالذي تمتعت به، وإلى رغد كالذي تمتّع به أفراد الدولة

أخرسني أبو الحسن، اجتاحتني جيوش من الأفكار، أفكّر فيكِ، لم ألتقِكِ منذ أيَّام... أفكّر في والديَّ، في التشرّد الذي عشت، أفكّر في الألم الذي ينخر عظامي، أفتّش جادًّا عن منفذ وأنفجر في وجه أبـي الحسن: "أنا بلا معنى بلا حقيقة ولا كذب أنا أضيع هل هناك مكان بالجبل؟"، بدا أبو الحسن حائرا وراح يستغفر من ذنوبـي، قال لي: "لم تعد من حاجة لحمل السّلاح الرّئيس الجديد يسعى إلى تسوية الأمور وإعطائنا حقوقنا المسلوبة، البلاد ستكون مليحة".

لم أجد إلا إنتظار البلاد وهي تتحوّل من كابوس إلى جنة، ولا أرى كيف سأكون أنا ساعتها، اقترح أبو الحسن أن أعمل عنده في أحد محلاته! أيّ تجارة يمارسُ؟ قال: إنّ مخبزته بباب الوادي تحتاج إلى بائع وأنّ محلّ قطع غيار السيارات "بدرارية" يحتاج أيضا إلى بائع في الفترة المسائية وحارسا يبيت به. قبل عقدين من الزّمن كان والد أبـي الحسن يعمل نادلا في مقهى مومن الخبيطة، كان جدّي سيّد والده، اليوم أنا أجير أبـي الحسن، البلاد تنقلب رأسا على عقب فهل ستكون بخير؟

أشتغل في المخبزة صباحا وأعود معه في المساء إلى درارية، يذهب إلى بيته وأذهب إلى العمل، لم ينس أكلي يوما ولا دفعَ أجري كلّ أُسبوع كما كان يتعامل مع بقية العمّال الذين يعتبرونهُ واحداً من الصّالحين، يكنُّون له احتراما وتقديرا أكبر ولي لأنني أبدو لهم من آل الوليّ الصّالح، لم نعد نلتقي أبدا، أنتِ تجدّين في تخرّجكِ أو خروجك وأنا أنأى عن ظلال نضال وردية، وأقف تحت شمس أبـي الحسن الذي أصبح أبا عبد الرحمن.

في الأسبوع التّالي أخذت عطلة ليومين تفقّدت السيارة التي كانت خردة لا لون لها وهتفت لك، تحجّجت باقتراب موعد زفاف أختك وكثرة انشغالاتك، كنتِ باردة أكثر من قبل، مررتُ بمحلّ قريب من بيت وردية وطلبت منه أن يشيع سيارتي للبيع، زرتُ وردية التي كانت في قمّة الغضب من القانون الذي أتى على آمالها ومن يناضلن معها، كانت تصرخ وتدور عبر غرف الشّقة "أيّ وئام ودماء أزواجنا وأبنائنا لم تجف بعد؟" لم أستطع أن أقول شيئا، أنا لا أفهم تماما عمّا تتحدّث ولا أريد أن أفهم، انصرفتُ ولعلّها لم تنتبه لحضوري ولا لانصرافي.

العمل مع أبـي الحسن لا يتعبني والمال الذي أحصّله كاف جدًّا

بالنسبة لشاب لا يبيت ولا يأكل من أجره، أفكّر لو أنّكِ تعيدين تأمّلي، قد يكون بوسعنا أن نفعل شيئا معا، أتصوّر أني ألتقي شقيقك مجدّدا، أنّي أدخل بيتكم، لا يصلح هذا تتسارع دقّات قلبي وأتعرّقُ خوفا فأقفز على الفكرة، أشتاق إلى أمّي وأبي وإلى شريف وجمال وأتذكّر ما طلباه منّي منذ أكثر منذ أكثر من ثلاث سنوات، ألا يكفي القليل من المال لإسعاد الكثير من الأطفال؟

-9-

"ما حاجتك للصّباح إذا كنت لا تملك لؤما لبقية النهار؟"، هذا السّؤال كان مجرّة تجثم على قلبي، فكّرتُ لو أني أفيق ليلا وأنا نهار ففكّر السؤال أن يقول: "ما حاجتك للظلام إذا كنت لا تملك لؤما لبقية الليل؟".

صرت أعقّدُ الأمور وإن بدت سلسة كطفلة تبحث عن صدرٍ حنون، لا أعترف بواقع يتوّج ظنوني بهدأة وصفاء، ويتملّكني شكٌّ على هذه الأرض هل من حياة؟

أمضي إلى آخر المشهد المتكرّر المبتذل دون سلاح ولاسبب للبقاء، صوتٌ ما يقول لي: "ما حجّتك؟" كأنّها نبرة يحي يسائلني عمّا تبقّى مني، وأنا أفتّش عن الحجّة في سكونٍ كاذب وفوضى خفية، يحتفي البعض بالرّئيس المتوّج، بكلّ القوانين التي يكتشف ويسمّون السّاحات العمومية على القوانين والمراسيم، ويعارض البعض الرّئيس وانشاده الفردي، ولا ينفكّون موالين في كلّ غد وأبقى أنا خارج المشهد مذ كان. كأني ألوّح بيدي الباردة في ضباب العالم، أريد أن أرى، أن أصل دون جدوى.

صباحا أتى الماء على باب الوادي ولفّ الحكاية.

لهكذا صباحات طعم مرٌّ، يقولون أنّ أسطح البلاد طفت؟ ويحكون أنّ الهامشيين من أمثالي غرقوا بالمئات دون أن يعرفوا موعدا للرّحيل وأنا أتخيّل الماء قنبلة، ألم يرتبط الماء بالحياة؟ في مدينتي يحتفي الموالون بالماء وكلّما أمطرت هتفوا لعام جميل لأنّ الماشية ستلتهب أسعارها، قضيّة واضحة فالماء يعني الكلأ والغذاء للماشية ويعني فيما يعني انتصار صلوات المستسقين واستجابة لرجائهم، لكننّي أرى الماء موتا، أتى الماء على نشيد شهداء باب الوادي وبلّل أفكاري الجافة وجعلني أنأى بمواجعي طالما يتاح وجع للآخرين، ولكنني لم أقض في تلك الفياضانات، ولم أفقد أحدا ولم يفقد أبو الحسن مخبزته. "الطّيبون وحدهم من يختار الله" هكذا سمعت أحدهم يفسر للآخرين الموت في حافلة مكتظة كغرق، أنا لن أموت لأني على قدر من السُّوء يكفل لي البقاء طويلا.

أعود مجدّدا إلى روشيه الموت.

الموت جالس هناك في تأهُّب ونهم، عشرات الآلاف من القتلى الذين قدّمهم العبث في السنوات الأخيرة قرابين للظّلام لم يسدّوا حاجته، ولكنه لم يلتفت إليّ ولا انخدع بوجهي الحزين نّهائي الملامح. الموج أعلى ممّا تصوّرت، تهتزّ الصّخرة العظمى ولا أهتز فوقها، يلتطم الموج بالبنايات، ولكنني أنا إدريس لا أجرؤ على رميي في هذا العجاج، أخشى عليكِ، ترى هل أنت بخير؟ لديك أهل بباب الوادي ربّما زُرتهم يوم الطوفان؟ لعلّكِ تتألمين لفقد أحدهم؟

كلّما غابت سوّلت لي نفسي الأحاديث عن غيابها، أسارع هذا المساء

إلى الرّغاية وكم بعيدة الرغاية من "فوكة البحرية" حيث أنا، رابطتُ لمساء طويل أتحسّس الحيّ الذي تسكنه.

ربّما أفسّر حركة أو أفكّ خيوط رسالة مستنفرة من هنا أو هناك، لم أر شيئا يريب ورأيتها تمشي مع شاب أنيق أقرب إلى الكهولة بالصّلع الذي يعلو رأسه، بدت سعيدة وهي تلج العمارة معه، ربما كان ابن عمها أو خالها أو...؟ استفزّني الأبله الذي كان أهمّ منّي حضورا وأناقة ووسامة وربّما مكانة... بل أكيد هو أهم فعلا.

عدت إلى درارية مطمئنا قليلا عليها، ولكنّ صورة ذلك المهمّ تقضّ مضجعي. في الغد سأزورها في الجامعة.

كان يوم الإثنين مطعَّمًا بمذاق النهاية، الجوّ جنائزيّ والناس معرضون عن الابتسام، الوحيد الذي ابتسم كثيرا كان الأصلع الذي وجدته قبلي عند باب الجامعة... ابتسمتْ لهُ عند خروجها، سلّمت عليه بفرح لا تعادله إلا قدرتها على تجاهلي، هي تدير ظهرها وأنا أقف كورق الجرائد على الرّصيف المقابل، أفكّر أن أعاقبها على هذا السلوك، لكنّها أفهمتني تفاهتي مساء اليوم الموالي.

– من الأخرق الذين تعتدين به وتتجاهليني؟

– خطيب.ي

كان ينبغي أن أصفعها إلاّ أن رغبتي أن تكون القصّة كلّها دعابة غلبتني، بل اقتنعت أنّها كذلك، ابتسمت وأردت أن أمسك يدها، كان ب.ي شوق يفعل داخلي ما فعل الطّوفان، أغرق داخلها وتسحب يدها مهدّدة بنظرة لا أعرفها

– ماذا ألا ترغبين في مرافقتي؟

– يبدو أنّك لم تفهمني أقول لك صرت مخطوبة... أنا لغيرك ولا يمكنني أن...

قاطعتها وأنا أغلي

– مخطوبة لمن وأنا الذي...

– أنت قطعة من الماضي، سليم يعرف الحقيقة وهو رجل متحضر يعيش بفرنسا ويفهم أخطاء الشباب

من سليم هذا؟ ماذا يعني أمام الذي بيننا؟ لماذا تريد قتل أشياء جميلة أبدعناها معا؟ كأنّ نظراتها تخطف الكلام من شفتيها المرتعدتين غضبا، كأنّ شفتيها تتنبهان إلى خيبتهما معي، أقرأ في عينيها "ليس هناك من جميل بيننا" لا أعرف إن كانت البقية من إملاء عينيها أم من حراك شفتيها، "سليم ابن عمّتي طبيب بفرنسا إذا كنت تعرف ما يعني الطبيب". إذن انتهى كلّ شيء، على أيّ أرض أنا؟ عندما انصرفت لم تنطق باسمي، لم تقل وداعا إدريس، لم أسمع سكون السّين لأطمئن أنّها ودّعتني وهي تعرفني، أنّها طعنتني تماما وليس عليّ الإنتظار لأشرع في النّزف، قرأتُ أيضا "لم يكن هناك ما يفترض أنه انتهى". لم أعرف إن كان كابوسا أم ضرورة من أجل سرد الحكاية وامتاع عيون تراني مثلما كنت أتخيّل في طفولتي؟ ألا نعتقد أننا مراقبون! ربّما كان أفضل لو جعلتها زوجة لي وجعلتني أنا الطّبيب وهو المريض الشّريد، على الأقل لكنت خفّفت بعضا من ألم إدريس.

في الأربعين من عمره سلبنيها. أغادر ولا أصل إلى الأربعين، ليتني

أفيق في الأربعين.

تأخذني الطّريق إلى فوكة البحرية. هذا المساء أشربُ وجعي، أنهيت القارورة اليتيمة التي كانت معي في حين يلتهب رأسي، أسأل عن دموعي فلا تُجيب الصّخرة العظيمة التي امتطيتها، أهدّؤني بكل الطّرق ولا أنجح، أغادر الصّخرة وأترك الحراسة هذه اللّيلة لأبي الحسن أو للسّارقين المفترضين، كباريه "مرجانة" ليس بعيدا وهو احتمال قريب، أربعمائة دينار من أجل الدّخول، أربعمائة دينار عن كلّ طلب، ومغنية الرّاي تشرحُ وجعنا المشترك، أشرب ولا أشدّ بخيط التألمّ أو التشتُّت، كأني أرتشفُ الحكمة في الكون الذي يلي الموت والجنون. أنادي على النّادل أدسّ ورقة نقديّة بجيبه فلا يندسّ ألمي معها، أحترق من رأسي إلى أخمص قدميّ وتحبُّ هي غيري، لماذا صنعَتني إذن؟ أشيرُ إلى فتاة وأنفصل في اللّحظة ذاتها منّي فأصبح أنا وأنا الآخر، في وحدتي تشظٍ وفي تشظيّ توحّد، يُلقي النّادل الخدوم بكلمات سريعة بأذنيها المنسّقتين فتحيّيني قبل أن تقوم لتجلس إليّ مقبلة شفتيّ كأنّها تعرفني قبلكِ، هل هذا الذي حصل معكِ؟ وجدت رجلا سليما دعاك فقبلته وبدأتما بعيدا عن مسخي؟ ندخُل في لعبة تعرفها هي جيّدا ولا أخبر منها إلا ما أرتجلته ساعتها، تُرى أين يفترض أن أمضيَ بي بعدها؟

عندما تحبّ أحدا لا تفرّق بين الشّتيمة والمدح الذي يبدر منهُ، هكذا كنت معكِ في الزّمن الخالي، الآن أجلس إلى فتاة تبدو أجمل، ولكنّها لا تملك الألق الذي عرفته بعينكِ، كلّما نظرتِ إليّ عرفت الذي أريدُ، كنتِ بوصلتي. في عينها تيه وتيه في عيني، نتبادل تيهين في ضجيج، أجلس إلى هذه الفتاة الشّقراء كأني لست أنا، كأني أشاهد أحداً غيري وأتكلّم بلسان لا أكاد أفهمه، إبتعدتُ عن إدريس كثيرا ولست أعلم أين خلّفته ولا نحو من اقتربت، شربتُ معها ودخّنا

سجائر الغولواز ورقصنا معا كأنّها رفيقتي منذ الأبد، وتمسّحت بـي كأنّي الوحيد الذي تريد، أُغازلها وأسألها أخيرا عن حكايتها وعن وجعها، ألا نأتي عادة من وجعٍ؟ هناك كنّا نتقاسم الأوجاع والغباء، انسابت رقيقة ولخّصت وجعها في غيهب الفراق والحبّ والرّحيل. عذابٌ ساذج إذن –قلتُ في نفسي– قالت أنّها فتاة بسيطة حلمت مرّة بحبّ وجدته ولعنتهُ سريعا، حكت الرّحيل الذي يكلّل الحكايا الجميلة، حكت رحيل والدتها الفنلندية عندما قرّرت أن تموت دون سابق إنذار ذات صباح شتوي، ورحيل فتاها ذات صباح شتوي، ورحيلها هي في الصّباح الشّتوي المظلم الأخير، تمثّل ببراعة ألمها أو لعلّها تتألم ببراعة أحسدها عليها أنا العاري حتّى من أساليب الألم.

نامت بالملهى وخرجتُ أنا منسحقا أجرجر ظلّي الذي ازداد ضخامة كلّما تماديت في المشي تحت الأضواء، المسرح لا يعترف بغيري في هذه المسرحية المملة التي لا يحضرها أحد، ولا يخرجها أحدٌ، لأنه لا يكتبها أحد، لا أعرف من أين مشيت إلى أين! الصّباح كان يلقي بـي إلى سيارتي المعفرة أبدا، وجدت أحدهم كتب استجداء على الزّجاج الخلفيّ للسيارة بأصبعه فاتحا ثغرا من النّور لداخل السّيارة التي لم يعد لها داخل بعد تراكم الغبار على زجاجها، كتب الحاذق "إغسلوني أرجوكم"، ابتسمت لنداء السيارة، ولكنني لم أُفكّر سوى في الذي أستجديه فيغسلني مني، ألست درنا سميكا؟، بالكاد فتحت الباب حتى استوقفني رجل لم أعرفه قبل أن ينخرط في قصّة قصيرة جدّا أعرفها، لقد كان التاجر الذي طلبت إليه أن يجد مشتريا لخردتي. بعتها ذلك الصّباح بأبخس ثمن، ولم أبك فراقها وأنا أمضي عقد بيعها بالبلدية لأني بلا دموع، أصبح معي ما يشدّ رمقي لليال قادمة.

مساء كان عليّ أن أتجمّل لكلّ هذا الهذيان، أخذت دوشاً واشتريت بعض ما يؤنّقني من الملابس، تلك عادتي أمحقُ البدلة قبل أن أشتري أخرى؛ لم أكن أُغيّر ملابسي إلاّ حين أقتني آخرَ الشّهر غيرها، إلتقيت كاميلياء بنت الملهى وطفنا معا في شوارع العاصمة التي لم تفقد من حزنها الكثير، كانت خبيرة بأماكن المواعدة، قادتني إلى المطعم وإلى قاعة الشّاي الأنيقة واقترحت الفندق الذي سيضمنا، أصبحنا صديقين وأفرطت في تدليلها واقتناء الهدايا لها بعد أقل من أسبوع صار لقاؤنا مرّة كلّ يومين، تعدلُ بيني وبين غيري، ولكنها كلّما باتت معي منحتني بعضا من القوّة التي أستطيع التشبث بها ولو إلى حين، لم أعد أعمل لدى أبـي الحسن، أريد أن أحيا حياة لا أجدني فيها، وكاميلياء لا تبحث عني بل تريد البقاء مع إدريس الهدايا والشّبق، هذا الذي يصلح للبقية. أهرب مني وتسهّلُ كاميليا المهمّة، بل تبدع في تهريبـي وأسأل عنكِ سرّا كي لا أؤنبني، وتبتعدين... كلّما تذكّرتكِ صرت أبعد، كلّما أحببتك صرتُ أبعد، تزوّجتِ وأنا أبحث عنكِ... غادرت الجزائر وأنا أبحث عنكِ، سعيدة جدّا في أوربا ويكاد المال القليل الذي معي أن يذوب كاملا، لم أعد أُحقّق لكاميلياء ما يقابل خدماتها الجليلة، ولم تعد تخدمني إلاّ من باب الشّفقة.

في الغد قصدتُ أبا الحسن ببيته فتح عبد الرّحمن الصّغير الباب وارتمى في حضني يصيح "عمو"، لديّ مع الأطفال سحر ما، عندما خرج أبو الحسن لم يفعل ما فعل ابنه، كأنّه يتنكّر لي وابتسمُ لهذا الجفاء، داخلي يقول أحدهم "أنا جائع ومتعب حدّ النهاية"، وأبو الحسن يصرخ بـي أين اختفيت وتركت المحل بلا حراسة؟

– كنت أُفتش عنّي

- ما الذي جاء بك الآن؟

- جئت لأواصل عملي

- حتّى وإن كنتَ لا تستحق ذلك، ولكنني لن أفرّط في ابن مدينتي... إبدأ العمل الليلة

عدتُ لحراسة اللّيل والبيع نهارا بخراب باب الوادي، ولم أعد ألتقي كاميلياء، ولم يعد من الممكن إلتقاط أخباركِ التي نأت تماما، استمرّيتُ في العمل بجدٍّ محاولا تجاوز الفشل طوال أشهر بينما قرّر أبو الحسن أن يذهب إلى الحجّ، أشعر بوحدة رهيبة كلّ يوم وأتمادى في العمل، في الحقيقة نصّبني أبو الحسن كعين على تسيير العمل والعمال، كلُّ شيء كان ينخرط في العادية بدأت أتنشّق بعضا من هواء البشر، وأنا أبتعد عن الخمر دون إرادتي وأُقلّل من الدّخان وأسمع بعض المواعظ حتى إني سأصلّي.

في ذلك اليوم الجميل كنت أقود سيارة المخبزة عندما لمحت كاميلياء عند موقف للحافلات، لم أكن لأقاوم رغبة الحديث معها ولو بشكل سريع كلمة واحدة وأمضي، ركنت السيارة بخبزها المهيّء للتوزيع ونزلت إليها، ما إن رأتني حتّى طارت فرحا، هذا الفرح أعرفه، كنتِ تلاقيني به قديما، لا بد وأنّها ستجد لها آخرا في غمرة فرحي بها، لم أسعد بلقائها، بل تظاهرت أني لا أعير الأمر أهمية، عانقتني أمام الجميع وبرقت من عينيها دمعة صغيرة، ها هو الأمر الذي يدوّخني الدّموع التي أعرفها حين أضحك ولا تعرفني متى أستنجدت بها، كانت حقّا جميلة وأنيقة، سألتني أين اختفيت... وكيف تركتها وحيدة... ومتى نلتقي وأين؟!! ألف سؤال كان بعينيها الصّغيرتين وبحركات أصابعها الجميلة، كانت تحرّك عينيها

عبر كامل وجهي وتقرأ وضوحا قد تجلّى وترضى وتبتسم، غُصت في المشاهدة... لم أكن أنا، تأمّلتني وأنا أبتسم وأقترب منها وأهمس في أُذنها كلمات، ثُمَّ أعضُّ على أرنبة أُذنها وأنصرف، لاحقا أعرف أني أعطيتها موعدا.

في المساء الهادئ كانت الجراح تغفو... ربّما تحتضر... أدخلت كاميلياء الجميلة جدّا محلّ أب.ي الحسن لقطع الغيار وسهرنا معا، نامت بأحضاني وأنا أمازحها وأداعبها كطفلة في الرّابعة من عمرها، قلت لها أنّني سأقطّعها قطعا جميلة وأبيعها للبنات القبيحات يتجمّلن بأعضائها، ولن أحتفظ إلا بقلبها ويدها اليُسرى وأذنها اليمنى، ضحكت كثيرا قبل أن تسألني تفسيرا. إستجدتني إن كان يمكنها زيارتي والبقاء معي هنا فلم أُجب طلبها، ب.ي بعض الأمانة رغم رغبتي في بقائها إلى جانب.ي.

أصبح العمل يستهويني، أجتهد في إدارة المخبزة والمحلّ معا، للمرّة الأولى أشعر أنني مؤهّل، أنني أستطيع النّجاح، الآن أشتاق إلى أب.ي الحسن كي يرى نجاحي في إدارة تجارته، وأُريده أن يطيل غيابه كي أستمتع بقدراتي التي أرقب نموها المتسارع.

عاد أبو الحسن سريعا ولم يخبر عن عودته أحدا، دخل المخبزة فوجد العمل على قدم وساق ووجدني أتنقّل بلا كلل هنا وهناك، ولعلّه زار محلّ قطع الغيار فأعجبه النظام، عانقني أكثر من أيّ عامل آخر، ألست جنديه الأقدم؟ لا بدّ وأنني ضابط كبير الآن! تعشّينا جميعا في بيت أب.ي الحسن، وكان معنا الكثير من أصدقائه، عرفت أحدهم كان يسكن بحيّنا في الجلفة لم أذكر اسمه ولا تذكّر هو إسمي، لكننا تعارفنا وسلّمنا على بعض بحرارة وفرح، أعرف تماما أنه كان في الجبل واستفاد من قانون الوئام المدني، بدا مسالما وهادئا ومؤدّبا جدّا،

أبو الحسن يشيد بـي ويعرّفني على أنّني أخوه، وكنت مزهوًّا بنظرات الإعجاب التي تحيط بـي، لم تغرني الحكايات فقرّرت الإنصراف إلى محلّ قطع الغيار لأحرسه، إعتذرت وانصرفت تلاحقني نظرات أبـي الحسن مباركة خطواتي، حظيت بمكانتي القديمة لديه؛ فبعد الجنديّة أتى السّلم والبناء، وكنت سعيدا لأنني أُحقّق بعضا من الوجود، لكنكِ كنت ترصديني في كلّ مكان، كثيرا ما كنت أتصرّف وكأنكِ تراقبني وأحرص كلّ الحرص على التميّز، أفتقدكِ وأقفز على الفقد بتكثيفي، أعرف أنّ البنات ينسين الحبّ القديم متى تزوّجن، صرتُ نسيا منسيا، وربّما لا يتزوّجن حبهنّ الكبير ويخترن إنهاء القصّة في كامل اتّقادها، هل أكون حبّك الكبير؟ لم تدم سعادتي الصّغيرة بخطواتي لدى أبـي الحسن إذ جاء صباحا كبركان، أخرجني من يدي ولم أبدِ حركة

ضدّ وليّ نعمتي، في الخارج – كما كنت دوما – نهرني وسبَّ ثقته بـي وأنا أبتسم لأني أعرف أنّ الأمور ما كان ينبغي لها أن تمضي جيدة، "كم حسابك؟" سألني وهو يعضّ على فكّيه فتبرز عضلةُ عظيمة من خدّه وتعود إلى الإختفاء بسرعة، "شهر ونصف" أجبته وفكّيّ رغوة.

أخرج كومة من الأوراق النقدية، إقتصّ منها أجري "أُحسب جيدا حقّك"، أقبضُ المال وأجيب بينما رجلي تنطلق في مداها خبيرة بالضياع "حاشى أن أفعل بعدك يا الحاج".

طردني أبو الحسن حشاوش أخي وقائدي ومعلّمي وابن محّاد القهواجي رفيق درب ومقهى جدّي مومن الخبيطة، ولم أسأل عن السّبب، هممت بالرّحيل حين قذف بكلمات أفهمتني الموقف، قال لي بأنّ محلاّته طاهرة لا ينبغي أن يوسّخها أمثالي وعشيقاتهم، أفهم الآن أن زكرياء ذلك الأخرق الذي رآني ليلة

جاءت معي كاميلياء قد وشى ب.ي؛ رغم أنه أبدى استعداده لخدمتي عندما سألني إن كنت أحتاج شيئا، ألتفتُ إلى أب.ي الحسن، أبتسم في وجهه وأُودّعه صامتا، لقد أردت أن أنهار وأبكي، لكنني فشلت ها أنا أعود إلى الذي كنت دائما، لم تقفز فكرة جميلة برأسي غير كاميلياء، فلتعش كاميلياء ويسقط أبو الحسن وزكرياء المخنث وليسقط الرّئيس وكل قوانينه. أقصد كاميلياء... الوقت يذعن لي عندما أكون معها والأماكن لا تغدو حاقدة عليّ كما اعتدتها، أجواؤها لا تشبه الحقيقة، إنّها تزيّن الواقع، سهرنا معا في الملهى ذاته، رقصت معها وشربنا حتّى الفجر، نزعت عني كلَّ الهمّ الذي اعتدت أن أرعاه وحيدا متى انكسرت، هذه المرّة لم أتألم، لكنّني بعد أُسبوع أصبت بآلام كبيرة عبر كامل جسدي، مفاصلي أكثر وأصيب جيب.ي بخواء مفرط، وكانت فتاتي قد خرجت عن الحكمة والعقل حين قرّرت أن نتزوّج ونغادر العاصمة إلى الجلفة أو إلى غيرها، بدت ملحّة في طلبها، بل كان أمرا منها تجاه كائن ورقيّ لا يقدر على رفض طلب سيدة تهبه أسباب البقاء والنهوض صباحا والحياة كاملة، لا أدري كيف رفضت طلبها، ولم تركتها بعد أن تأكّد لي رفضها الإستمرار في دور الأنيس؟ وأيّ أنيس ككاميلياء، قلت لها: "أعي الآن لم كان ينبغي أن أحتفظ ببعض أجزائك وتعينَ أيضا"، أترك كاميلياء للجميع وأمضي بلا أحد، لا أحد، لا أحد.

مملكة يحي تلغي كلّ الاحتمالات، أصبح الصّمت أكثر من ممكن، إلتهمتني لحظتكَ يا خال فأين أعثر على هدوئك وحكمتكَ. عمّر يحي كلّ شوارع الحبّ والسّكينة بنظرة واحدة فقتلوه، وهدّمتُ أنا كلّ ذلك بحركات وتنقّلات عشوائية وأعرض عني الجميع، حتى أبا الحسن لم يقم فيّ حَدّا.

-10-

الرّاهب الذي يبحث في تاريخ مدينتي الأولى، يريدها أن تكون بداية البشرية، يفتّشُ كلّ زواياها وصخورها ويأمل أن تمنحه ما يبهره ويبهرنا من بعده، تعلّق بها لأنه بلا أنثى، وعندما اقترب من النهاية حزم حقائبه وإلتمس له ألف عذر وغاب، في آخر رسالة بينهما قال لها "تصوّري لقد متُّ بعيدا عنك؟"

الجلفة وكم تتأى.

أغادر العاصمة وداخلي إنزلاق ما، ربّما تأتّى لهذه المدينة المتعبة أن تُبعث بعدي، ربّما تنهض بناءات القصبة التي اندثرت وتمتلئ القصور القديمة بالحركة والبخور والطّيب... ربّما تبدأ حكاية أخرى أهمّ وأنقى وتنتهي الحكايا النذلة التي لطّخت الشّوارع البيضاء.

بالأبيض "مدينة الجلفة ترحب بكم"، أنت لم تقرئي هذه الحروف الشّامخة أعلى الجبل عند مدخل المدينة، وأنا أدخُلُ الجلفة أستعير بعضا من الحياء لأبدو مألوفا لهذه الشّوارع التي تغيّرت وامتلأت بأوجه غريبة، أنا خبير في الملامح النائلية وهؤلاء دخلاء أكثر ماشدّ انتباهي كثرة المجانين والشّحاذين مع بعض

المشرّدين الذين لا يضير وجودهم في أيّ مكان، طُفت في الشّوارع وكانت الشّمس غائبة طوال النهار، إنّها مدينة تحتفي بالخريف كلّ يوم، حتّى في هذه الحبسة الشّتائية من عام ألفين وثلاثه يبدو البرد القارس خريفيا، أنا لا دخل لي بالأمر إنّه هوى الجلفة الخريفي، ولا أستطيع أن أنفصل عنكِ، لست ذكرى ولا امرأة عبرتني كما تُعبر الطّرق والمدن والبشر، كما عبرني الخوف، لم تعودي طقسا أو قضية، لقد أصبحتِ أنا بملامحي التي غادرتُها حتى لا أراك فيها، أصبحتِ أنا بنزقي وحكمتي وكلّ حركة أو سلوك قد يبدر مني، أضعت إدريس وغرقتُ فيك مذهبا وشبهة وانتماء، مرحبا بي في كلّ الضّياع.

يذكّرُني تجاهل الجلفة بأيّامكِ الأخيرة، كأنّها راحلة عني أو مرّحلتي، أنهكني التّلاسن الذي كان بيني وبين أزقّتها وشوارعها، أردت أن أذهب إلى بيتنا هناك دفء لايتاح في غيره، لكن "مولاي" الإسكافي الكريم كان وجهة معقولة في هذا الوجود الضّبابي، محلّه الصّغير مغلق، كيف لم يتنبأ بمجيئي؟ لم يكن ليغلق قبل الثامنة مساء.

أصبح باب منزلنا كستار ينهي مشاهد التراجيديا، قبل أن أهمّ في الطّريق تناهى إلى انتباهي منزل عبد الرحمن واللاّفتة التي تحمل اسمه في أقصى الشّارع، كان منزله يرقى بأزيد من متر عن منزلنا، لا أدري ما جدوى هذه البناءات اللامتناسقة والتي تتّجه نحو الأعلى كلّما أوغلت في شارعنا، وجدت نفسك تصعد نحو الجنوب، تذكّرت عبد الرحمن ووردية وشعرت بهما يمثلان أمامي وعاد مذاق التين وزيت الزيتون مركّزا بفمي، كلّ هذا كان من المشاهد الآفلة، انزاح الستار وحده بينما كان صوت المؤذن القيّم على المسجد يعلو مغربًا، عرفت صوت الأعور... أبي يفتح الباب ويطير فرحا بابنه الذي غادر

مرّة ليحصِّل ديبلوما مجهولا ولم يعد، عانقني ولم أستجب، إنتظرتُ أن يطردني أو يصفعني أو...، لكن من سوء حظّه أنه أب.ي، دخلت المنزل كأني أهبط على الأسرة الهادئة من الفضاء، أمّي تختلط دموعها بقهقهات متقطعة، جمال يشدّ برجلي بينما يرقبني شريف بنظّاراته الجديدة كأنه لا يصدق أنّ سندبادهم يعود... مازال بالبيت فسحة لي، لكم كنت أتمنى أن تعودي معي ملفوفة ببهاء الزّوجة، لكم كنت أتمنّى أن تحظى أمّي الزّاهدة بكنّة مثلكِ، ولكنني أعود كبيرا رغم صغري الأخلاقي والحياتي، متعبا، ضائعا ووحيدا... منتهى الفشل يا والديّ العزيزين، لم يتراجع أب.ي عن الصّلاة خرج إلى المسجد لعلّه أدرك ركعة، أتألم... يزداد الألم عبر كامل جسدي النحيف الذي يفوح بسجائر "النسيم" النتنة، وفي كلّ مفاصلي شاهد على الهبوط والبرد المخزن، لم يكن اللّيل طويلا كما اعتدته، سهرت الأسرة حتّى الصّباح تتأمّل كبيرها وتنتظر أن يفاجأها، كان العدم لافتتي الأكبر ولم يكن هناك سوى حديث عن الحياة وخلاصات معروفة عن طبائع البشر.

عدمٌ.

الطّفلان كبرا غير أنّهما طلبا هداياهما سرّا، نظراتهما توجعني وتبكيني...آه، أنسحقت، أقسم أنني طلبت رحمتها ب.ي أكثر مما طلبت منكِ ومن اللّيل أوان التّشرد، عندما جلست إلى نفسي أردت أن أستجدي ماءً من عينيّ الجليديتين فنظرتا إلى الغرفة تتأمّلان ترتيبها ونظافتها، لم أستطع التّمدّد على السّرير، إفترشت غطاء واستلقيت، خشيتُ السّرير المعبأ بالأحلام والكوابيس والخطايا والذّكريات التي تقهرني، هو سريركِ وسرير وردية ووردة، ألم أحلم بكِ هنا، وهو سرير نامت عليه أموالٌ صهرها الزّمن في اللاّشيء، ثمّ إنّ شريداً مثلي لا يسهُلُ عليه أن ينام في هذه السّكينة والنّظافة التي لا تُحتمل، قليل من القذارة

ضروريٌ.

صباحا خرجتُ إلى الشّارع، سكّانُ الحيِّ يلوِّحون لي أو يسَّلمون عليَّ بحرارةٍ، انتشَيت وأنا محتفى بـي، لعلّ بعضهم همس لبعض أني عدتُ من الجبل أو من الجنديَّة أو من فرنسا، حيث القدّيسة التي خلّفت حكايتي معلّقة بخاتمة لا يرضاها أحد، سلَّمتني الشّوارع إلى بعضها بسرعةٍ لا أعلم إن كانت تتقاذفني متضايقةً من عفويّتي أو أنّها تحتفي بخطى الإبن الضَّال وهو يهتدي إلى أمِّه؟، أجدني أمام السُّوق المغطَّاة وسط المدينة قريبًا جدًّا من السّوق الدّائرية حيث محل مولاي، أحثُّ الخطى نحوه، سوف أعانقه هذا الشّهم المليء بشيم النَّائلي الأوَّل، صعدتُ السّلالم مسرعًا وكشيخ في الثلاثين لم يعد يحتمل الحركة السَّريعة، خرج لساني أمامي في لهاثٍ مقزِّز، أخيرًا يبدو المحلُّ، أدخل منتش، كان مولاي يعمل، رأيت ظهرهُ، تأمّلته، لم يكن ظهره... هذا أنحف، إلتفتَ إليّ، لم أر مولاي... تسمّرت في مكاني. "مرحبًا بم أخدمك؟" ونظر إلى رجليَّ يجسُّ الخطى هل تمزقت؟ "أبحث عن مولاي"، لم يحرِّك ساكنا ولا نبس ببنت شفةٍ، أعدت سؤالي. "مولاي الله يرحمه يا خويا" قالها وأطبق عليّ السّماء. من قتل مولاي؟

مادت الأرض من تحتي، هل مات الجميع؟ لقد تركتُه بقوَّةِ رجلين، بحلم أُمَّة، بروحٍ ملائكية، كان يبتسم أبدًا، أعرف أنني لن أبكي رحيلهُ فأنا شبهُ ميَّتٍ، كانت شفاه الرَّجل تتحرَّكُ ويداه تلوِّحُ ولم أكن أسمعُ شيئًا ممَّا يقول، ربّما يذكرُ مناقبهُ ولكنَّه يجلسُ مكانه هل يورِّث أمثال مولاي؟ خرجتُ فيما كان الرَّجلُ يواصلُ مشهدهُ الصَّامت، أضعتُ اليوم المؤلم في حديقةِ الحريَّة أتحدَّثُ إلى نفسي بلا هوادة لا أدري إن صَرَختُ، لكنني رأيت أو خُيِّل لي أني رأيت مجنونة

يقودها وحشان إلى مكان مختفٍ، خلف نصبِ الشّهداء المشيَّد داخل الحديقة وقد انصرفا بعد ساعةٍ من الزّمن، وخرجت هي شبه عارية بعدهما، كم مؤلمٌ أن ترى من هو أقذرُ منك وأنتَ تعرف مقدار قذارتك؟ لم أكن لأفعل فعلةً كهذه، أشعر بدوَّارٍ والألم يزداد حدّة، أمَّا البرد فإنَّه فكرةٌ جلفيَّةٌ منذ القِدم، أفتّشُ عن سيجارةٍ أخرى لعلَّها السّيجارة المليون فلا أجدُ معي سجائرًا، أغادرُ الحديقة منهارَ القوى، أمشي نحو البيت وأرتاحُ عند كلّ شارعٍ أتأمَّلُ الضّجيج والآخرين من الوافدين على المدينة في غيابـي، كلُّ هذه السّيارات الجديدة والقديمة، كلُّ هذه الكُتلُ البشريّةُ الغبيَّة ولا أحد يستطيعُ أن يكونَ مكاني للحظةٍ فقط أريدُ التنصُّل منَّي لبعضٍ من الوقت، أنا متعبٌ جدًّا.

أصبح الألم ينخر الجسد منصتا للعبة الرّتابة والبرودة والفشل، أصبحتُ، أركن إلى الصّمت تدريجيا بل أصبح الصّمت آيتي، تلحّ أمّي عليّ أن أتزوّج، وجدتْ لي طفلة ألعبُ معها وأشدّ على الصّمت، بعد أسبوع من السُّكات والألم أزور طبيبا ينصحني ببعض التحاليل بالعاصمة.

في البيت أمضي وقتي في التّفكير في فراغ لا مثيل له، أمّي تطلق لحنا حزينا من مطبخها، طالما أحبّت تلك الزاوية ذات النافذة السّمائية، أرادت دائما أن تصبغه وتزيّنه وأن يكون مرتبا أكثر من أيّ مكان، على الأقل كانت تؤمن بمطبخها وتحارب لكي يبقى مأواها آمنا ومرتبا، وهو الأمر الذي حصلت عليه طوال سنوات، كان لحن أمّي الجنائزي يردّد اسم يحي، وكان يحي ينزل عليّ فجأة صديقا ورفيقا ومستمعا وناصحا وحاميا لي من الجميع ومني، يحي يأخذ الآن كلّ الفضاء له ولا فضاء لي إلا في يحي، أخرج من البيت جريا، لم أجر منذ مقتل يحي... أعود على الطّريق ذاتها، في لحظة ما أرى الموت، أتصبّب

عرقا ثمّ أحترق ثمّ أجفّ وأيبس، ثمّ أتوقّف عند عتبة الموت. لم يعد بوسعي الجري أكثر، تحت جسر حجريٍّ قديم أتمدّد وأشّكّ في قدرتي على البقاء حيّا إلى غاية وصولي "قبب العطايا"، مقبرة القبب ستكون مأواي الأخير، آسف لأني سأموت دون أن أمنحني لحظة اطمئنان، آسف لأني في موتي هذا لا أملك خيارا لتقدير وصية، أتصوّرني أقدّم نفسي للموت في تصنّع للشجاعة "أنا إدريس، اسمي بسيط وواضح... ألف.. دال.. راء.. ياء.. وسينٌ حادّة كسهمٍ في القلب"، لا يخافني الموت ولا يصغي إلى هذه الطقطوقة المملة.

أقبض بيدي على تراب نديّ وأمسحه على وجهي ليعرفني المكان فيرحمني، أنتمي إليه طائعا، ضائعا، بلا اقتدار، جزمتُ دائما أني لا أخشى الموت بعد أن فقدتكِ، تصوّري كنت مرعوبا وأنا أقاوم موتي، روحي التي كانت تنفر لم تتذكّر فراغك داخلي فترحمني، عندما كنت أناديكِ "روحي" لم أعلم أنه هذيان؛ مجرّد هذيان فروحي لا تبالي بـي، إنّها تصغي إلى نظرات المكان وهو يتحوّل إلى كائن موحّد لا همّ له سوى منحي تأشيرة العبور إلى النهاية، إنّه الموت...، أريد أن أنساك وأتذكّر يحي الذي سألحق به قريبا، تصبحين أكثر حضورا في النهاية المفترضة، أعيد كلّ ما مضى مستعجلا دفعكِ إلى الخارج فيندفع جوفي، أتقيّأ وأنا مستلقٍ...، أختنق، مخاط... دموع... سعال وعيون تكاد تنفر من الرّؤيا كلّها، داخلي هزيمة ودموعي لا تفسّرها؛ إنّها تتضامن مع الأحاسيس الأخرى لا مع طلبـي البكاء. ما زلت أذكرك حتّى في هذه النهاية القاسية، أفكّر في لحظة وأنا أسابق الموت هل يفترض أن أموت ممدّدا تحت جسر حجريّ قديم؟ لا أشعر بيديّ ولا رجليّ ولا لساني، حواسي لا تطيعني... والنبتة التي تقف عند رأسي تأخذ حجما كبيرا يضاهي الحياة التي حلمت بها، وتراني بعيونها العديدة من كلّ الجهات.

عندما أفقتُ كانت النبتة قد تقلّصت، لم أتحرّك وبقيت أتأمّلها، ساقان ممتدان في طمأنينة، وبتلات أعلاها وقليل من الأوراق الدّقيقة لزهر ما، بدت لي نبتة عجيبة وشعرت أنّها فعلت شيئا عندما كنت أموت منذ قليل، أردتُ أن أفعل لها شيئا، أن أمنحها اسما، أن أنتمي إليها، أن أخدمها، أن أسقيها، ولكنّ عطشي يتناسل. حملتني وأنا بين الفرح ببقائي والرّجاء فيه، أشكّ في وجودي وفي المكان، لن أواصل جريا ولا هرولة، مشيت بهدوء ولست أعرف إن كنت أمضي إلى يحي أم إلى ذكراه، لست متأكّدا إن كان الأمر سلوكا طبيعيا أم هروبا مني نحو جنوني؟ يحي أكبر من أيّ وقت آخر يظهر مقامه كأنّه يجد من يرعاه، أليس هذا هو شأن أولياء الله الصّالحين، يحي كان وليا صالحا يعرف الله سرّه والنباتات والصّمت. أقترب من بيت جدّي بقبب العطايا، الباب الحديدي ما يزال يحمل خربشاتي القديمة، وما يزال يسحرني بخطوطه وصدئه وبالدّفء الذي يحفظه، أحواض نباتات يحي كما هي، النباتات لم تذبل ولم تستقل من مسرحها، أيّ مخرج أنت يا يحي وأية مسرحية خالدة هذه؟ الشّيح بخطّ الرقعة، الرّمث بخط الثلث، الرتم بخط النسخ، الحلفاء تلائم الفارسيّ، والمثنان يمارس الجمباز على إيقاع الخطّ الديواني، ها هي النبتة التي أنقذتني منذ ساعات قليلة، لقد ملأت الفراغ الذي تركه يحي في المسرحية، يا الله إنه "البروق" إذن فيحي هو من أنقذني، إلتبس عليّ الأمر وجثوت على ركبتيّ أقبّل البروق وأعانقه بلطفٍ، ربّما حلّت روح يحي في هذه النبتة، لقد تركتُ الحوض باسم ودون كائن، ووجدته بالإسم والكائن.

عندما عدت إلى البيت كنت في حالة مزرية، لم يكن بوسعي أن أستحمّ لهذا لجأت إلى غرفتي واستسلمت لنوم عميق، كنت في دوامة من الكوابيس والأحلام، صوت أمّي كان الفاصل بينها؛ ففي كلّ مرّة تدخل إلى الغرفة لتوقظني

أفيق من فصل كابوسيّ لأنخرط في حلم جميل أو العكس، إلتقيت بالجميع، أنتِ كنت كابوسا وحلما، يحي كان مراقبا فقط، اكتفى بالوقوف دائما في مكان يمكنه عبره أن يشهد على جنوني، وأبـي وأمي كانا عذابـي في كلّ كابوس وفرحي في كلّ حلم، أبو الحسن حشاوش شرب القهوة دون توقّف في أحلامي وكوابيسي رغم أنّه كان مقاطعا للقهوة ومناصرا للشاي. بعد ثلاثة أيام أصبح وجهي بالونا وبطني تجويفا داخليا، أفقت مساء وأنا أتضوّر جوعا، لم أحنّ إلى تين وزيتون وردية، ولا إلى كبابك، لم أطلب من أمّي أن تحضّر لي أيّ طبق، إتجهت إلى المطبخ، فتحت الثلاجة وسحبت ثلاث بيضات مزجتها في مقلاة والتهمتها بلا ملح.

وجدتُني مشتاقا إلى بيتنا فدخلت كلّ الغرف أكتشفها، أمّي كانت تضحك وهي تحدّثني عن نومي العميق، تتنقّل معي كأننا في جولة بمتحف أو رواق عرض تشكيلي، توقّفتُ أمام صورة يحي التي لم أنتبه لها على إحدى جدران غرفة نوم والديّ، حدّق فيّ يحي، تأمّلته، لم أعثر على الإحساس الذي يجب أن ينتابني.

أغادر الجلفة إلى العاصمة بحقيبتي القديمة، أسحب المرآة وأعوّضها باطار صورة يحي. هذا القدر يريدني أن أحفظ الحصى والتراب والشّجر الذي على الطّريق... لا يريد لي نجاة. إنتابني شعور بالخيبة وأنا أكرّر الرّحلة القديمة، قال طبيب مخبر التحاليل أنّها بداية روماتيزم، لا ينبغي أن أتهاون حتّى لا تتطوّر الأمور إلى ما هو أصعب، وأكّد أنّ طبيبـي المعالج سيمنحني أدوية ونظاما رياضيا لإعادة تأهيلي كشاب...؟ أتساءل أيّ نفع في هذا الحطام؟

ليس لديّ خطة ولا تصوُّرٌ للبقية، كلّ ما هنالك ألم يتراكمُ وأسئلة لا تتّضح ووطن يضيق، كلّ الذي بقي خوف مشوّه وأحاسيس كريهة مثل هذا

الصّيف الكسول والحارق، لم يكن بوسعي التّشرد مثلما عهدتني شوارع العاصمة ولا المشي لمسافة طويلة.

"روشيه الموت"... صخرتي الحبيبة تلحُّ الآن في طلبي، "ماي" شهر معبّئ بالشّهوة والإحتراق، إنّه شهر قديم ولكنّ حرارته تتراجع أمام بردي الأقدم، كان الظّلام تماهى مع الذي داخلي من رماد، هدأت وأسلمت الأمر للشّارع، ربّما نمتُ لساعتين أو دقيقتين، ظلّت الصّخرة تطلبني، وظلّ هدير البحر يكبر بأذني ورائحة الموت المحرج مني تحاصرني.

"روشيه الموت" هل من موت؟ وما هي الحياة؟

ها أنا أجيؤكِ أيّتها الصّخرة، أتذكريني؟ كأنّها تذكرني... المكان الوحيد الذي يحسبني صاحبه هو "روشيه الموت"، مجدّدا تمنحني هذه الصّخرة حياة أخرى لا يفهمها غيري، ترى هل عرفتِ؟ هذه الصّخرة هي الوحيدة التي تقتسم أسراري معكِ، إلا أنّها لا تتنكّر لي، لا ترفضني، بينما يفرّ الجميع من حقيقتي، في بيتنا كنت أحفظ أسراري فلم يضق بي البيت قط، عندما تملك سرّا تملك حياة وعندما تملك أسرارا تملك حيوات، لماذا تعذّبت بأسراري ولم أكتمها؟ لقد كنتِ جُرحًا يتجوّل في جراحي، لقد صرت جرحا يتمطّى في جراحي.

أسحب صورة يحي وأفكّر ما الذي يمكنني أن أفعله لأجل ذكراه، ليس أمامي شيء واضح سوى أن أواصل صراعي وبقائي، داخلي رضا كبير دون سبب وحقد أقاومه تجاه الكثيرين، لم أعد أحبّ التلفزيون والجرائد، لا أحبّ صورة الرّئيس وأعضاء الحكومة والنواب، لا أحبّ الإرهابيين والتائبين والشّرطة والدّرك والجيش، لا أحبّ رموز الدّولة كلّها ولا رموز السّلم المبرمج بعد الحرب

المبرمجة. أنا أنتمي إلى يحي الذي قُتل لأنه صامت، لا أنتمي إلى أبي الحسن ولا إلى هذا الرّئيس وجنرالاته. أنتمي إلى الأرض التي يعيش عليها البروق وليس إلى الوطن الموثّق بالورق.

أقف أمام مبنى اللّجنة الاستشارية العليا لترقية حقوق الإنسان، أحمل صورة يحي وأصرخ مع عدد من النساء والعجائز والشّباب "لا للنسيان"، "أرجعوا لنا أبناءنا"، "نريد الحقيقة"، أحدهم يبحث عن أمّه والآخر عن شقيقه وأنا عن خالي يحي وعني وعنكِ. في المشهد ناقة بيضاء يجرها طفل قمحيّ البشرة شاقّا التجمع، وددت لو أفهم ما حاجته هنا، بدا مشدوها من الجمع وبدوت مشدوها من وجود الناقة المضطربة في ممرّ هُيأ للراجلين في مدينة وليس في كثبان رمل، للحظة تصوّرت أن الحكاية كلها كذبة أو هذيان غاليت في تصديقه، للحظة شككت أني أنا وأن المكان هو المكان وأن الشخوص جميعهم هم الشخوص. رغم ذلك واصلت الصراخ بنهم، لم أتعجّب من قدرتي على الصّراخ عاليا وتأمّل الناقة وطفلها والضّياع والانتباه إلى حكّة أسفل فخذي، وتذكّر لحن أغنية "ولفي من المحبة"، كل ذلك في لحظة واحدة.

أصابني تعب مفاجئٌ، وفقدت صوتي تماما من فرط الصّراخ دون أن أتشبّع، أريد أن أصرخ أيضا، إسمُك كان ينبض في ذهني ولا يمنحني سلطة نطقه، يلجُ ذاكرتي سريعا ولا يقيم بها، أنتِ بلا إسم وأنا أحكّ لساني لينطق به بلا جدوى، إنسحبت من فوضى الإحتجاج المحصور في تجمع أفراد معدودين ممّن بقي يذكر فقيده، مشيت قليلا ثمّ جلست أقاوم الأشواق والأشواك والفراغ كلّه، على يميني نبتة بروقٍ جريئة تتحايل لتعانق الحياة دون مبالاة بالفقد الذي في دواخلنا، عيناي موخوزتان من عمقهما بإبرٍ مالحة... البرد يجتاح جسدي ويلفّ الحكاية.

صخب الأشواق يعلو

تعلو نبتة بروق وتمدّ يدها نحوي فلا أجد يدا لي

ثمّ يرتّبنا البرد كما يريد.

---

[1] لوحة بيكاسو الشهيرة تخلّد القصف الذي تعرضت له مدينة غرينيكا من طائرات ألمانيا النازية.

[2] تلك الطريقة كانت معتمدة في الكتاب وما تزال رغم أن التحديث الذي طال مناهج تحفيظ القرآن محا الكثير من معالمها.

[3] ياسر بمعنى كثيرا.

[4] Les asphodeles: أي البروق.

[5] الجبهة الاسلامية للانقاذ.

[6] عتروس أي تيس.

[7] برباروس: أحد القادة الأتراك في الأسطول الجزائري، عرف بهذا الاسم الذي يعني صاحب اللحية الحمراء.

[8] الفرارة والشعرة: نوع من القهوة التي تحضر بشكل مختلف، تقدم في بعض مفاهي الجلفة.

[9] الحشاوش: هو البقدونس.

[10] الخوانجية: إسم أطلق في السبعينات والثمانينات على الملتزمين دينيا من الاخوان، وتكرّس لاحقا في وصف من يطلق لحيته ويلتزم دون تفريق بين التوجهات.

[11] أبو الحسن المارودي صاحب كتاب "أدب الدين والدنيا".

[12] "الأحكام السلطانية" كتاب لأبي الحسن المارودي.

[13] معتقل بمنطقة رقان في الجنوب الجزائري جمع فيه الإسلاميون مطلع التسعينات.

[14] أرواح: تعال، نتيجك: هنا بمعنى صنوك أو ندّك.

[15] يقول سكان الجلفة "العرب" يقصدون بها البادية.

[16] قبب العطايا مكان قرب مدينة عين معبد شمال الجلفة، توجد به مقبرة.

[17] مثل شعبي.

[18] البحيرة: تعني المزرعة.

[19] الماصّة: ورق للفّ التبغ يستخدم في لفّ سجائر الكيف.

[20] الخبيطة: أي السّكير.

[21] نوعان من الكيف.

[22] القنونة: إناء من الحلفاء يعطي للماء طعما مميزا ويحفظ برودته.

[23] الرّحبية: متن المواريث الشهير.

[24] أغنية لخليفي احمد.

[25] le cordonnier: بالفرنسية تعني الاسكافي.

[26] هل تزرعها أم تمنحها غذاء للماشية؟

[27] مدينة صغيرة شمال مدينة الجلفة.

[28] ميموزا نوع من النبات.

[29] مثل شعبي بمعنى إذا غاب الحسن بقيت آثاره.

[30] يعيّطلك: يناديك.

[31] الشماتة: شتيمة تعني شخصا عديم القيمة.

باردة كأنثى

اقبض بيدي على تراب ندي وامسحه على وجهي ليعرفني المكان فيرحمني. أنتمي اليه طائعا. ضائعا. بلا اقتدار. جزمت دائما اني لا اخشى الموت بعد ان فقدتك. تصوري كنت مرعوبا وانا اقاوم موتي. روحي التي كانت تنفر لم تتذكر فراغك داخلي فترحمني. عندما كنت أناديك «روحي» لم أعلم انه هذيان: مجرد هذيان فروحي لا تبالي بي. انها تصغي إلى نظرات المكان وهو يتحول الى كائن موحد لا هم له سوى منحي تاشيرة العبور الى النهاية. إنه الموت... اريد أن أنساك وأتذكر يحي الذي سالحق به قريبا. تصبحين أكثر حضورا في النهاية المفترضة. اعيد كل ما مضى مستعجلا دفعك الى الخارج فيندفع جوفي. أتقيأ وأنا مستلق... اختنق. مخاط... دموع... سعال وعيون تكاد تنفر من الزوايا كلها. داخلي هزيمة ودموعي لا تفسرها: انها تتضامن مع الاحاسيس الاخرى لا مع طلبي البكاء. ما زلت اذكرك حتى في هذه النهاية القاسية. افكر في لحظة وانا اسابق الموت هل يفترض ان اموت ممددا تحت جسر حجري قديم؟ لا اشعر بيدي ولا رجلي ولا لساني. حواسي لا تطيعني... والنبتة التي تقف عند راسي تاخذ حجما كبيرا يضاهي الحياة التي حلمت بها. وتراني بعيونها العديدة من كل الجهات

إسماعيل يبرير

• روائي جزائري، فازت روايته «وصية المعتوه» بجائزة الطيب صالح دورة 2013

• لوحة الغلاف للفنان العصامي

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ... PUBLISHING

www.neelwafurat.com - www.nwf.com نيل وفرات.كوم